الفهرس

« النقد الذاتي » وأزمة التفكيــر السلفي

قراءة علال

(1)

بقلم : توفيق الشــــاهـــد

« قد يكون من قبيل القول المكرور المعاد ، التأكيد على ان الفكر المغربي لن يشكل مقوماته وعناصـــر اصالته وخصوصيته الا من خلال التحليـــل والنقــد الهادفين . والمقال الذي نقدم القسم الاول منه (القسم الثاني في العدد المقبل) يتناول فكر شخصية مغربية لعبت دورا بارزا في حياتنا السياسية والثقافية سواء أيام الحماية أو ما بعدها من ايام الاستقلال الـــى اليوم . انها شخصية المرحوم علال الفاسي . والمقال كما هو واضح منذ بدايته ، يتناول فكر علال بالتحليل والنقد من زاوية معينة قد لا يعتمدها كثيرون ممـــن يعرفون علالا او قراوا له . ومع ذلك ، بل لربمـــا بسبب من ذلك ، فان مجلة اقلام اذ تنشـــر هــذه الدراسة ، انما تريد فتح نقاش جاد حول قضايا الفكر المغربي مساهمة منها في بلورة اشكالياته وابراز مدى ارتباطه بواقعنا المجتمعي العام .

واذا كانت هذه المجلة قد التزمت منذ صدورها وما زالت وستبقى تلتزم ، الخط التقدمي ، فان هذا لا يعنى بالضرورة أنها توافق على كل الآراء التي تنشر فيها ، في هذا الاطار نفسه ، ولا انها تتبنى الاطروحات التى تطرح من خلالها في هذه القضية او تلك . انها منبر لكل الاقلام الوطنية التقدمية التى تلتزم حدا أدنى من الجدية والموضوعية مع الاخلاص في المعاناة تحليلا ونقدا ، او انشاء وابداعا .

« اقلام »

المحاولة هذه ، قراءة علال (*) لن تفى بالغرض المطلوب، اذ ان جوانب « الزعيم » تفوق الحصر . ولعله من الظلم ، وكلنا سيشعر بذلك جزئيا ، أن يكون من اسماه عبد الله العروى بـ « أحد أساطين السلفية في المغرب » (يقصد علال) (1) ، سيبدو من خلال تناولى هذا احاديا ، اى منظوراً اليه من زاوية ايديولوجية ، باعتباره ، وهذا جانب فقط ، **منظرا سياسيا وداعية حزبيا ومحرضا وصاحب وجهة نظر، عمليا هى برنامج حزب الاستقلال المحافظ بالمغرب** . لذلك ، من ناحية ، ساكون قد جردت علال الفاسى « المتكامل » من أغطيته الزائدة واضعا اياه في مواجهة النقد دائما والاتهام الموضوعى حينا والتقدير أحيانا . هذه الاغطية من جهة أخرى هى علال ، ولكنها ليست علال الذى أحب أن أتناوله بالدرس من خلال أبرز كتاب نظرى صدر في المغرب أواخر الاربعينات (اى منذ حوالى ثلاثين سنة على وجه التقريب) كانت له اهمية رائدة في وعى مجرى حياتنا

واقتراح حلولها فى سياق خط تفكيره النظرى . اقول هذا عن تقدير ، ولكنى اقول أيضا أن علال بدون أغطيته ليس اكثر من منظر سياسى وطنى بكل تأكيد وسلفى بكل تأكيد ، وبورجوازى بكل تأكيد . وهنا المعنى فيما ابحث عنه . اننى بالطبع أستبعد منذ الوهلة الاولى الاجتهادات الدينية التى قدمها علال الفاسى فى حقل الشريعة الاسلامية (وكلنا يعرف أن دوره فى ذلك مرموق) (2)، واستبعد من جانب آخر النظر اليه كمؤرخ وطنى، لكنى بالضرورة اهتم به أيما اهتمام كواحد من الذين فعلوا فى هذا التاريخ الوطنى . ثم استبعد فى الاخر الجانب الذى لم اشر اليه بعد ، اقصد علال الشاعر المجيد فى بعض فترات ابداعه المبكر .

عندما استبعد كل هذه الجوانب ، اكون بذلك قد استخلصت من علال حركته ، أى معرفته كتعبير عنها ، التى ترجمها بصورة فعلية من خلال ريادته الحزبية سياسيا وتنظيميا وايديولوجيا ، كما اكون قد عثرت ، وسيعثر القارىء معى ، على علال المناضل البورجوازى الذى جعل من السلفية أسلوب حياة ودعاية وممارسة . وعلال بمسمياته المتعددة ، هو هذا الرجل قبل كل شىء . انه هو طالما أن حياته منذ امد طويل جدا اقترنت بفعله السياسى ونضاليته الوطنية . ثم انه هو طالما أن كتابه (النقد الذاتى) (3) كما سيظهر لنا (أرجو) ليس الا التعبير النظرى — الايديولوجى عن هذه الحياة ، وبالضرورة عن المشروع الجديد لحياة البورجوازية الوطنية التى اراد علال ان يجعل منها دولة ليبرالية بالمعنى ، ومؤسسة اقتصادية ، فوق أن وضعها الطبقى كان قد استقر كاطار لتطلعاتها فى الاستقلال سنة 1956 ، الذى يمكن ان نسميه بتحفظ شديد استقلالا وطنيا مشروطا ، كما يمكن أن نسمى مبادرتها فى هذا الاتجاه خطوة مشروطة هى الاخرى .

انني بالتاكيد سأتكلم عن رجل فارق الحياة كما يعلم الجميع ، وهذا امتياز لي كما اقرر مع نفسى بدون غرور (على اقل فى منأى من الاحراج) ولكنني سأتكلم أيضا عن فكر سائد او هو يحاول أن يسود لم يفارق الحياة بالطبع . نقصد بكل تحديد : لم يفارق قدرته على التأثير المباشر والمنظم أحيانا على فئات واسعة من الحركة الجماهيرية . وهذا المنحى الاخير كما اقدر أيضا ، فيه امتياز لحركة ثقافتنا المعاصرة ، اذ مفروض لكى نحيا كفكر جديد أو مشروع فكر جديد ، لابد من ان نقدم بمناية على دك السيادة الطبقية للفكر البورجوازى دكا — ذلك وتنفس جيلنا الوحيد من خلال الصراع الطبقى — الايديولوجى بالتحليل الملموس والمنهج الجدلي . الامر يتعلق اذن بوعى الظاهرة ، ونقد الظاهرة ، وبناء ظاهرة جديدة فى حياتنا المعاصرة :

الظاهرة الاولى أن علال مات منذ سنوات معدودة (28 ماى 1974) ولكنه ترك ميراثه النظرى لطبقته ولحزب الطبقة وهى به تحور الحياة الاجتماعية من خلال الصراع ، لكى تنجح فى أقامة مشروع دولتها التعادلية ، ومن ثم مزاحمة ، مزاحمة فقط « الميول » الكومبرادورية والبيروقراطية التى تربت فى المغرب تحت اسم الاستغلال الاقتصادى والقمع الايديولوجى . ولكنها مع هذه المحاولة لا تساهم ، من خلال خططها الاصلاحية المزعومة والذيلية ، الا فى دعم الوضع الطبقى السائد فى المغرب على نهجها الخاص تحت غطاء المعارضة للبرلمانية الزائفة سياسيا وفى المرحلة . والظاهرة الثانية أن الفكر البورجوازى فى المغرب، هو هجين وطفيلي كما لا يخفى ، يستمر فى تكثيف حياة ووعى فئات واسعة من الحركة الجماهيرية بما يقصد اليه من تذويب الفروقات الطبقية وتحقيق دولة الرفاه والانتعاش الوطنى وانشاء

اخرى سنشرحها بعد (4) منعا منه ، نظريا على الاقل ، لبروز تيارات معاكسة له ، وكبحا منه ، نظريا على الاقل ، لتطلعات الجماهير حقيقة الى مجتمع ديمقراطى تقدمى يوفر الحريـات الديمقراطية ويقضى على الاستغلال ويطلق مبادراتها العجيبة ، وضدا ، نظريا على الاقل وفى الاخير ، على الصراع الطبقى . والحال أننا بصدد محاولة يراد منها تزييف الصراع الطبقى ، ثم اذا امكن وهو ممكن فى الظروف الحالية تحت السيادة الفعلية للاتوقراطية ، تعنيفه رجعيا . أو ليس فى استمـرار الثبـات الاجتماعي مطمح من مطامح البورجوازية فى استبقاء هيكـل سيطرتها كاملا ضمانا لاستغلال فائض القيمة فى الدعاية الاصلاحية والخير .. ؟. بلى ، كما نفترض .

فى الاخير أن الظاهرة الثالثة هى مشروع هذه القراءة — المحاولة . وهو ما سنقدم على عرض خطوطـه الكبـرى فى الصفحات التالية . فلنعد الى السطر .

دعنا نأخذ النص التالى ، مختصر سيرة علال بدون تصرف، رغم طوله النسبى ، ففيه عدة مفاهيم تحدد من جهة قراءتنا لعلال من حيث الدلالة التاريخية والسياسية ، وتضع من جهة اخرى تأويلا ايديولوجيا ماكرا لحياة الرجل ، له معناه فـى السياق ، وبالطبع انسجاما مع « مهمة » التفكيـر النظـرى للبورجوازية . يقول النص : « ولد بفاس يناير 1910 من أسرة الفاسيين الفهريين (*) الشهيرة . درس فى القرويين . واشتغل اثناء الدراسة بحركة تنظيم الطلبة رغبة المطالبة بتنظيم الجامعة وتجديد أساليب الدراسة فيها والمقاومة كثير من العادات المتبعة فى المدينة . تزعم حركة السلفية الجديدة ، كما تزعـم حركـة الدفاع عن ماء فاس ومقاومة العمل الاستعمارى ضد اراضى الناحية منذ سنة 1926 . اشترك فى الدعوة لقضية الريـف

اثناء الحرب التحريرية بها ، ساهم فى تأسيس المدارس الحرة وتطوع بالتعليم فى المدرسة الناصرية . نظم الشعر وهو فى أوائل العقد الثاني من عمره ... نال عالمية القرويين سنة 1930 وتطوع لتدريس التاريخ الاسلامى بالجامعة ، فكانت محاضراته مجمع النخبة المغربية من الطلبة و عامة الشعب . منعت السلطة الفرنسية دروسه وحاولت اعتقاله فسافر الى شمال المغرب حيث حاصرته السلطات الاسبانية فانتقل لاسبانيا ثم لطنجة حيث علم بالامر المعطى لاعتقاله فسافر الى باريز . اتصل بالاوساط الفرنسية والمغربية وشارك فى تنسيق الحركات الوطنية المغربية وسافر الى جونيف فربط مع الامير شكيب ارسلان صلات وثيقة كان لها الاثر فى تعاون الرجلين فى الميدانين السياسي والعلمي. قام هو واخوانه بمظاهرة ضد الظهير البربرى سنة 1930 فاعتقل ثم اطلق سراحه ليعتقل بعد اسابيع على اثر مساهمته فى وضع المطالب المغربية التى قدمها الوفد الفاسى المنتخب لجلالة الملك . اسس مع اخوانه جمعية سرية كان مظهرها بعد هو كتلة العمل الوطنى التى تعتبر أول حزب سياسي بالمغرب . اسس أول نقابة للعملة بفاس سنة 1935 ثم منعت ، ثم عاد لاحيائها . ساهم فى وضع دفتر الاصلاحات المغربية والدعوة لها ثم بوضع المطالب المستعجلة كان احد القادة الثلاث المعتقلين فى البيضاء سنة 1936 على اثر الدعوة لهذه المطالب ، وقد أعقبت اعتقالهم مظاهرات دامية اضطرت السلطة معها باطلاق سراحهم . عاد لتأسيس نقابات العمال بفاس والقنيطرة بمساعدة السيد أبى الشتاء الجامعى . انتخب رئيسا لكتلة العمل الوطنى بعد تنظيمها سنة 1936 . على اثر منع الكتلة عاد الى عقد مؤتمر فى الرباط تقرر فيه اعلان اسم جديد للحركة هو (الحزب الوطنى لتحقيق المطالب) كرئيس للحزب الوطنى قاد معمعة الكفاح ضد الاستعمار

والاقطاعية والسياسية البربرية وللدفاع عن الفلاحين والعملة. تراس فى اكتوبر 1937 مؤتمرا استثنائيا للحزب بالرباط ، وهو المؤتمر الذى اتخذ سياسة **العمل الايجابى** ضد سياسة الاقامة العامة الفرنسية . اعتقلت السلطة اعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى ونفى رئيس الحزب الى الكابون . فى سنة 1940 كتب الى (ديجول) **يطالب بالاستقلال** . نقل من الكابون الى الكونغو حيث كانت له اتصالات بقيادة فرنسا الحرة وممثلى بريطانيا للعمل على اعلان استقلال المغرب . قرر الجنرال (ديغول) بعد بضعة اشهر استبعاده عن مدينة (برازفيل) الى مدينة (ماياما) فى الكونغو فى نظام اضيق . فى سنة 1944 قرر الحزب الوطنى فى المغرب أن يؤسس مع شخصيات حرة حزب الاستقلال واحتفظ لرئيس الحزب الوطنى بصفة **الزعيم** . اعيد للمغرب سنة 1946 حيث استانف نشاطه فى دائرة حزب الاستقلال وقام بدور فعال فى تثبيت مركز الحزب ومقاومة دعايات الاحزاب الفرنسية التى كانت اخذت تعمل لتشتيت المغاربة . قام بنشاط لتدعيم الحركة النقابية فى فاس والبيضاء وبنى ملال واكادير. سافر الى فرنسا حيث اتصل بشخصيات فرنسية ومغاربة واستقبل **بحفاوة** فى دار الفكر الفرنسى ، على اثر تعيين الجنرال (جوان) مقيما فى المغرب ، سافر علال الى القاهرة وشارك فى **تدبير** نزول عبد الكريم الخطابى التى كانت صحف فرنسا قد تحدثت عن الغاية من نقله الى فرنسا من منفاه من مدغشقر .. ساهم بنشاط **فعال** فى مكتب المغرب العربى بالقاهرة . فى سنة 1947 انتخب كاتبا عاما للجنة تحرير المغرب العربى التى تضم سائر أحزاب الشمال الافريقى . شارك فى **تنظيم حركة التطوع** المغربى لحرب فلسطين . فى سنة 1949 عاد للمغرب حيث منع من الدخول اليه فاقام بطنجة حيث **واصل** نشاطه الوطنى . فى سنة 1950 نظم فى

طنجة **أول** مظاهرة افريقية آسيوية لمقاومة الاستعمار . فــى سنة 1951 **فضح** مؤامرة الجنرال (**جوان**) ضد المرش وقاد وقاد المعركة فى الداخل والخارج من دسائس (جوان) ... اقنع الجامعة العربية بضرورة عرض قضية المغرب على الامم المتحدة . قام وفى رفقته المرحوم عبد الرحمان أنجاى بجولة فى أوربا وآسيا وأمريكا الجنوبية والشمالية للدعايــة لقضيــة المغرب . شارك فى تنظيم مكتب حزب الاستقلال بنيويورك ... عاد للقاهرة حيث واصل الدعوة للقضية المغربية فى اثر اعتقال **زعماء الحزب وأبطاله** . وفى يوم 20 غشت 1953 على اثــر ابعاد جلالة الملك **دعــا** للمقاومة المسلحة وعمل بتعاون مــع الاخ عبد الكبير الفاسى على تنظيمهــا فى الداخــل وتزويدهــا بالحاجات من الخارج . **رفض** سياسة اكس ــ ليبان والاستقلال فى دائرة التكامل ، رجع للمغرب وشارك فى المجلس الوطنى الموسع ووضع برنامج مستعجل ، ساهم فى جميع اعمال الحزب فى كل ما بعد الاستقلال .. أسس جريدة (صحراء المغرب) **للدفاع** عن حدود المغرب الطبيعية والتاريخية . كما أسس لنفس الغرض مجلة (الآفاق الصحراوية) **باللغة الفرنسية** . كــان اول من دعى لعمل ايجابى لوحدة المغرب العربى . تراس مؤتمر احزاب المغرب العربى المنعقد بطنجة فى أول أبريل سنة 1958. **تزعم الوثبة الجديدة ضد الانفصاليين** فى 26 ينايــر 1959 . ساهم فى وضع **مدونة الاحوال الشخصية** وكان مقررها العام . ساهم فى وضع **القانون المدنى** .. كاتب صحفى مقتدر ومحلــل اجتماعى **ممتاز** وخطيب مصقع وشاعر **متفوق** فى أشعار **البطولة** وانهاض الشعب .. متزوج وله خمسة أولاد ... » (5) ثم يجب أن نضيف باختصار شديد : توفى فى سنة 1974 (28 ماى) الى آخره .

سأحتفظ لنفسى بدور مناقشة هذا النص فى آخر هــذا

الفصل، لكن تجنبالاى التباس ممكن سأسارع بوضع تلخيص محدد لرايي ، يمكن أن يسهم بقسط وافر في شق صعوبة هذا اللجاج الكلامي التي كانت الايديولوجية البورجوازية هي موجهه في الدعاية . بالطبع اننا نخاطب القراء من موقع آخر على النقيض بصورة واضحة ، وهو ما يجب ان نفهمه بطريقة اولية من لجوئنا الى ابراز بعض الصيغ التعميمية في النص كانت محور الدعاية بواسطة اللغة — النفخ ، ثم بواسطة « نمرة » خفية للنفخ في مفهوم (الزعيم) الفرد محرك التاريخ وقائد البطولات الاجتماعية . ان ذلك لهو المعنى من ناحية في اختلافنا مع أي طرح يستبق فيه التوجيه دور العرض ، ثم من ناحية أخرى في قبولنا لهذا النفخ على علاته ، لانه يبرز بأسلوب معين آخر ما يلجأ اليه التفكير البورجوازي نظريا من منح النياشين البراقة اذا جاز التعبير) تقديرا لخدمات جلى يسديها الزعماء من موقع قيادتهم الطبقة . لقد كان المعنى المحدد للنص كما يمكن أن يكون قد لاحظ القارىء ، هو جعل مفهوم « الزعيم » في مقابل وليس في مواجهة التاريخ . بمعنى على المستوى الايديولوجي تحديداً ، محاولة لقلب العلاقة بين البشر (الافراد) والتاريخ وجعلها علاقة فرد بالمجتمع (6) ، بل وبهيئة المجتمع في مرحلة معينة . لعلنا مع حضور بديهتنا يمكن ان نميز أنه مجتمع واقع تحت أنواع شتى من السيطرة : استعمارية ، رجعية دينية ، وحتى قبلية بتوجيه من الاستعمار ، ثم اخلاقية متزمتة اذا لم نخطىء الصواب ، فمن هذه العلاقة **الفردية** مع التاريخ ، ما يظهر لنا علال الفاسي وقد صنعه تدريجيا ، وربما صنعه تدريجيا بما أوتي من خلق غريب يشذ عن خلق اقرانه ويبرزهم درجات في الاهتمام والتقدير وحتى النضال . ذلك واقع ولا سبيل الى دحر هذا المفهوم الا بالدخول توا في المناقشة ، وهو أمر مؤجل . لنقل اذن باختصار شديد أن علال الفاسي

كما سبقت الاشارة **مناضل وطني بورجوازي** ، وسنعمل على شرح ذلك من حيث الموقع الطبقي ، له دور **مشهود في النضال** الاجتماعي ضد الاستعمار الفرنسي بهدف الاستقلال الوطني وتحقيق الحريات الديمقراطية — **الامر الثابت اذن** ، أن وطنيته **هي شهادته في النضال وعليه** ، والامر الثابت الاخر ان وطنيته كانت **عملا بورجوازيا** صارع به الامبريالية الفرنسية في حركة توسعها واستغلالها لثروات البلاد . ولكن ما يثبت حقا وايضا الى وقتنا هذا هو ان علال ذاته كان **محترفا سياسيا** في اخر التحليل ، عمل على اجهاض الحركة الوطنية على مراحل متباعدة (بداية الثلاثينات وبداية انحدار المقاومة الاطلسية المسلحة — اواسط الاربعينات في أوج النضال الاجتماعي من اجل التحرر السياسي والاقتصادي — وفي مطلع الخمسينات بكسر دابر المقاومة المسلحة **عمليا** ، ثم كان ما يمكن ان يقال منه **تدعيما نظريا** ، خروجا بها عن مهامها الاستراتيجية (تحرير المغرب العربي) .

ان هذه العملية المعقدة بالطبع (ونرجو أن نشرح بعض خطوطها فيما بعد) هي التي جعلت منه منذ البداية ، بداية الستينات ، زعيم المحافظة الاجتماعية ، وصاحب دور سياسي وايديولوجي رجعي في الهجوم ، بل ومقاومة الحركة التقدمية في البلاد ، والوقوف في جه تطلعاتها الديمقراطية الحقة . وكلنا **يذكر ان علال الفاسي قد نصب من نفسه خير نـاطـق باسم السلفية (عمليا باسم الاوتوقراطية) من اجل مقاومة الشيوعية.**

في النص على نحو آخر ، ما عنيته سابقا بتزييف الصراع ، طالما العلاقة فرد — بالتاريخ من تحته بالمجتمع هي التي توجه الاحداث على نحو مثير وربما كاريكاتوري ، يكون من الضروري أن نفترض ، وعلى القارىء أن يفعل ذلك ايضا ان **صورة**

الجماهير هى علال ، بقدر ما من التجاوز يمكن أن نسلم أن علال الفاسي كان يقود الجماهير فى معترك نضالها ضد السيطرة الاستعماريه ، هذا نفسه واقع ويشهد به التاريخ المعاصر ، لكن : الا يمكن ان يكون علال قد قاد الجماهير فى ذات الوقت الي المهادنة ؟ . نقصد بعبارة أخرى الى محاباة الحماية فـى وقت كان النضال السياسى ، والنضال السياسى وحده يخسر أوراقه جملة وقد يعينه المطالبة والتودد ؟ . ان رأى (بتلمايم) (7) هنا صادق الى حد بعيد حين يقرر ان (البورجوازية) عندمـا تستكمل شكلها ، أى تعى ذاتها كطبقة ذات مصالح اقتصادية خاصة وملموسة ، فانها لا تعارض السيطرة الامبريالية الا بتردد ورخاوة ، بسبب من روابط بعض **فئاتها** بالامبريالية مـن **جهة ، وخشية منها ان تستنفر القوى التى يصعب مراقبتهـا** فى حركة مواجهة الامبريالية من جهة اخرى . ثم اننا لنذهـب بعيدا لنقرر مرة اخرى أن الجماهير كانت تنصاع لقيادة علال، لكن : الا يمكن ان نرى فى الواقـع الموضوعـى (السيطـرة والقمع ...) والذاتى (حماس المرحلة الوطنية والقضايـا الاجتماعية والسياسية الملحة ..)شيئا مما يمكن ان نعتبره واقعا — مرة اخرى — يستلزم ذلك ؟؟ . هذا واقع ايضا ولا سبيل الى تكرانه . لكن الشيء الذى يخفيه النص تحت حذلقة من الكلام الجارى المصطنع هو : كيف استطاع علال ان يكون ما هو عليه . أبمتياز ما فى خلقه الشخصى ؟ المقدرة فى طبعه السياسى ؟ . أن الدور الوطنى مشهود . ولكن الرغبة فى الباس العبارة ثوب الجميل المنافق تنـاسب الخـداع السيـاسى — الايديولوجى البورجوازى حقـا .

نحن اذن بهذه الصورة ، نقوم فقط بنوع من الاستقراء الاولى لبعض العناصر التى تمكننا من قراءة علال على نحو لم تفعله البورجوازية المتوسطة أخلاصا منها له . ولكن فعلنا

فعلنا هذا لا يستطيع- ان يذهب الى ابعد مما ذهب اليه علال نفسه في النضال ، نقصد على مستويين : وطنيا ورجعيا . واذا كان النص اعلاه قد اظهر مدلولاته النهائية . أن نظهر بدورنا بعض ما يمكن ان نسميه **الممارسات العلالية الرجعية** .

لقد اشرنا من قبل الى ان علال كان مخلصا في صراعه ضد الفكر الديمقراطي التقدمي بالمغرب منذ ما اصبح يحتاج ، ليس كشخص ولكن كطبقة ، الى سند شرعي يسترد به غمرة الحماس الجماهيري الوطني الذي مال على نحو راديكالي جهة تعزيز مطالب اليسار الوطني الديمقراطية في المرحلة ذاتهـا ومنذ حوالي 1959 . واذا كان التاريخ السياسي ببلادنا يقطع بدور علال الوطني بدرجة ما ، كما حاولنا أن نوضح في تقرير الاستقلال ولو على نحو ما ارتضت به البورجوازية الوطنية أن تستقل عن مصالح الطبقات الاجتماعية التي حملت معها اعباء بلوغه . الا أن التاريخ السياسي الحديث ببلادنا ايضا يكـون صورة أشد ما تكون وضوحا عن علال البورجوازي المحافظ الذي انتطع بفعل من حدة الصراع الاجتماعي ونكوص البورجوازية عن استكمال شروط التحرر الوطني ، انقطع نقول بعبارة قاسية نسبيا ، الى مغازلة الاوتوقراطية تحت شعـار المعـارضة البرلمانية ، بما يضمن من جهة بلوغ بعض مصالحها الانية ، ثم بما ينوب عن الطبقة الحاكمة في كبح جماح حركة التحرر الوطني مغربيـا .

على هذا النحو ولو بايجاز شديد يهمنا أن نوضح تبعا ن علال ولو بهذا الميل المحافظ قد عبر ، وبالطبع على حسـاب الحركة التقدمية في البلاد ، عن معارضته للتوجه الاوتوقراطي ـ الكومبرادوري الذي اصطبغ بالاختيارات الاساسية . تلك التي تحددت في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

انطلاقا من ممارسة الطبقة الحاكمة نفسها وبحكم سيادة نمط الانتاج الراسمالي ، الذى فرض اول ما فرض أن يكون الاستغلال هو عنوان القهر الاجتماعى على وجه الاطلاق . وسعيا وراء استكمال الصورة ، يمكن الاشارة الى أن علال ظل وفيا لمشروع برنامجه الاصلاحي على امتداد فترة طويلة من الزمن ، وهذا ما اكتسبه بالفعل ، فى ظل تزايد النفوذ الامبريالى فى البلاد اقتصاديا وسياسيا وفى ظل تنامى المد الديمقراطى المعارض لاشكال هذا النفوذ ، **صفة المناضل الوطنى الذى تراتبت فيه تناقضات البورجوازية المتوسطة من حدود الرجعية الى حدود الليبرالية مرورا بالوطنية** . ولعل هذا التراتب الذى يجب أن نعنى انه من خواص التكوين الذاتى البورجوازى ، قد أمد فى نضالية علال بحسب المراحل التاريخية من ناحية ، ثم أبرز فيه ما يمكن ان نعتبره لونا من الوان الاحتراف السياسى الرخيص. وأمره واضح عندما يتعلق لحديث بمواقف « الزعيم » من الحركة الجماهيرية وازاء مطالبها الديمقراطية الحقة . هل يبقى هناك من شك فى ان علال كان أسمى تعبير عن فكر البورجوازية الوطنية المتناقض والذيلي من ملامحه هذه ؟؟ . بالطبع ، بقصد الجواب على نحو تفصيلى ، وهو ما لم نعمد اليه بعد ، أن المسألة ستظل فى التحليل الاخير من اهتمام بحث يتقصى النتائج الفعلية لتوجه البورجوازية المتوسطة على امتداد فترة طويلة من التاريخ الوطنى .. وهذا مطمح نرجو ان نشير الى بعض العناصر فيه فى الفصول التالية . لكننا هنا لا نود أكثر من بسط بعض الاشارات التمهيدية كنوع من التشريح الشخصى لذاتية المفكر ـــ المناضل علال الفاسى . ولذلك فالامر بقدر ما يرتكز على ملاحظتنا الخاصة ، بقدر ما يجد سنده فى تراث علال نفسه ، على الاقل تراثه النظرى الذى كان فى جزء كبير منه تراث الممارسة السياسية بواسطة حزب الاستقلال . ما يهمنا

بالطبع هو أيضاح ان الطابع المتناقض لشخصية علال ، للبورجوازية الوطنية وهو منظرها الابرز بدون شك ، قد كلف الحياة الاجتماعية فى المغرب **اخفاقات** معاومة له فيها نصيب كبير . واذا عالجنا هذه القضية باشارات سريعة يمكن الوقوف كوجه من الصورة على مطمح البورجوازية الوطنية فى الاستقلال الوطنى ودلالاته من الوجهة التاريخية والسياسية — الطبقية. هنا نتساءل : اليس بمقدورنا أن نرد سيادة التفكير النمطى والتواكل الاجتماعى وطمس التناقضات الطبقية ... لعمل كبير قامت به البورجوازية الوطنية فى الدفاع عن برنامجها ومصالحها تحت شتى الغطاءات النظرية من الديمقراطية الى الليبرالية الى السلفية ؟؟ .

لننظر الى المسألة بشىء من التركيز ، وتناظر الاحداث من جهتين : البورجوازية الوطنية / الحركة الجماهيرية ، يفيدنا لهذا الغرض جدا .

اولا : بدأ علال الفاسى نضاله السياسى فى وقت كانت فيه المقاومة المسلحة ما زالت مندلعة فى جبال الاطلس (8) . والامر يتعلق على نحو شديد الدلالة بموقع طلائع البورجوازية المتوسطة من الصراع القومى حين بادرت بمباشرة العمل السياسى كنقيض للاسلوب « الراديكالى » فى مقاومة الاحتلال الاجنبى . هذا مظهر فقط ، بينما تبقى الحقيقة فى معرفة : الم يكن لعمل البورجوازية المتوسطة السياسى الاصلاحى هذا ، دور افشال حركة المقاومة ؟ . لنقل اذن أن ذلك تم بصفة غير مباشرة فى غيبة المصادر المفيدة . ولكننا نذهب بعيدا لكى نوضح أن حركة مقاومة الاستعمار بعد سنة 1930 ما كانت لتستمر بزعامة الارستقراطية القبلية ، ثم ماكانت لتستمر رغم أنها تطرح هدفيا قوميا ، وذلك كما هو واضح لترابط عاملين : **بروز الدور القيادى**

البورجوازى فى المدينة ، ثم آلية الاستعمار الفرنسى التى كانت تفوق حجم المقاومة وطاقاتها ، ثم كاضافة سريعة لهذين العاملين بسبب من تقلص الدور السياسى والتنظيمى لحركة هذه المقاومة وافتقادها الى اسلوب دعم منظم ... الى آخره .

ومع هذا فبازاء وجود حركة مقاومة مسلحة ترفع شعارات قومية ، خطط التفكير الاصلاحى الوطنى منذ بدايته الاولى لحركة مستقلة ساهمت بدورها فى عزل المقاومة وجعل مصيرهـــا جماهيريا وسياسيا فى حكم المنتهى . وهو أمر تحقق فى موازاة نمو واتساع الحركة السياسية الاصلاحية وتبنيها لنفس الاهداف القومية باسلوب آخر وطريقة اخرى . ان الحركة البورجوازية تضمت من حيث نزلت الى الميدان السيـاسى علـى اختيـار « راديكالى » كان بيد الارستقراطية القبلية ، ولكنه كان اختيارا ذا معنى فى مواجهة الاحتلال العسكرى . فهل من المفـارقـة القول ان هذا الاختيار الارستقراطى كان جذريا بما لايقاس من طموحات البورجوازية المتوسطة فى الفترة ذاتها ؟ . هذا أكيد.

ثانيا : واجهت الحركـة الوطنيـة بقيادة البورجوازية فى المغرب اسلوب الظهير البربرى عام 1930 من منطلقين :

أ ـــ دينى ، لانه كان يرمى (أى الظهير) الى تفتيت **وحدة** الامة بناء على مفهوم عرقى ، كاحدى سياسات الاستعمـــار الرجعية الشوفينية التى كانت تهدف الى خدمة مصالحه المؤجلة والفورية فى آن .

ب ـــ سياسى ، ثم تحت غطاء ايديولوجى ـــ سلفى كثيف. وبهذا العامل كان مخرج الحركة الوطنية ، نقصد قيادتها على وجه التحديد ، الى ميدان العمل الدعائى والتحريض ، تضامنا مع ثورة الحماس الجماهيرى . ولاشك أن الذى مد حبــــل

العمل السياسى البورجوازى واعطاه قوة التأثير المباشر فى فترات متعددة كان صنيع الاستعمار الرامى الى تقليص النفوذ القبائلى والعشائرى ، بالحاق جزء منه ببنيته الاستعمارية ، ثم ضمان السيطرة مستقبلا على استغلال البلاد . بخلق — انطلاقا من الاسس الاقتصادية للمنشآت الاستعمارية فى المغرب — **بورجوازية تبعيـــة** .

نقول : من هذه المواجهة — التاكيد على وحدة « الامة » ثم ربطها مباشرة (اى الامة) بعمل سياسى منظم يستفيد من عثرات الاستعمار الفرنسى فى استكمال مد نفوذه على مناطـــق واسعة من البلاد — خرجت البورجوازية المتوسطة الى العمل السياسى . لكنها خرجت اليه محفوعة بمصلحة عليا من الناحية **النظرية (وحدة الامة بالاستقلال) هى مصلحتها من الناحية العملية بالملموس** . وما دور علال بهذا الصدد ، الا دور منفذ لمشروع . انه بعبارة أخرى قرأ الاحداث من زاوية اختصاص البورجوازية فى تأكيد مصالحها ، **قراءة لا تاريخية** ، بمعنى من حيث اعتبر أن فى مصلحة البورجوازية وهى فى المغرب **تبعية** اصلا ، أن تواجه فى حدود اختيارأتها النوعية : **الاصلاحية والمساومة** .

وما كان بمقدورها ان تفعل الا ذلك ، نظرا لان شـــروط استكمال بناء قاعدتها طبقيا ، كانت منوطة فى جانب كبير منها، بآلية الاستعمار فى الانشاء الاقتصادى والاجتماعى . لكـــن البورجوازية المتوسطة — علال بهذا العمل كانت تضع الخطوات الاولى على طريق **ظهور نواة راديكالية** ضمن فئات واسعة من البورجوازية الصغيرة ، تقود بدورها ما اعتبره علال الفاســى (ونحن هنا نعنى حركة التاريخ البورجوازى نفسه) يأتى فى خاتمة استنفاذ كافة الحلول الاصلاحية . الم تكن حركة المقاومة المسلحة فيما بعد حصيلة هذه السيرورة ؟؟

على هذا الخط اكتسبت الحياة الاجتماعية من خلال الصراع ، سلطة البورجوازية المتوسطة كبديل مؤقت الهيمنة الاستعمارية . لكن هذا الاكتساب كان بحد ذاته فى مداه التقدمى والمحافظ معا ، وعلى نحو مثير ، **حركة تاريخية ضد تطور حركة الجماهير المغربية** ، بالمثل كان حركة تطور البورجوازية وفى آفاقه العريضة ، **ضد تطور الطبقات الجذرية فى الحركة الجماهيرية.** وليس من غريب المفارقات أن تكون البورجوازية الوطنية المغربية قد حافظت على هذا التوجه الى اواسط ستينات هذا القرن فى مستوويين **متلاصقين : تمييع الصراع الطبقى فى المغرب ، ثم الظهور بمظهر الحامى الوطنى لكافة المصالح الجماهيرية .** لكن ، لا يجب أن يفوتنا بهذا الصدد ان نلاحظ ان موقع البورجوازية المتوسطة اقتصاديا واجتماعيا ظل يؤهلها لهذا الدور فى ارتباط مع واقع هيمنة الاتوقرطية ــ الكومبرادور .

تكفينا هذه الملاحظات فى مجال الدلالة السياسية ، ثم لنرى من جديد كيف أن ما سميناه تراتب التناقضات فى شخصية علال المناضل البورجوازى ، لم يكن غير تطور البورجوازية الذاتى المحكوم أصلا بتكوينها المتناقض وبموقعها التبعى وبآفاقها المحدودة فى بلد واقع ضمنا تحت حماية السيطرة الاجنبية .

الحق أن عبد الكريم غلاب من منطلقات تفسيره المثالى ، محقا (اذا جاز لنا ان ندعم وجهة النظر المثالية بما تستحقه من استخفاف . ويا للتناقض !!) أقول كان محقا عندما قال : « وكلما بحثت فى تاريخ الحركة الوطنية الا وقام علال الفاسى وسط هذا التاريخ يشع ويضيىء ويملأ مكانه الضخم حتى أصبحت الحركة الوطنية متجسدة فيه . فقد كان يطبع خطواتها ببصماته وينفخ فيها من روحه باعتباره قائدها الاول » (9) . ثم أضاف باستصغار مقصود له ولمن يحاول اى كان « وليس من السهل

ان يكتب كاتب عن علال الفاسي ، الا اذا كان من الصبر بحيث يستطيع أن يتبع هذا الرجل فى أفكاره وتخطيطاتـــه واتجاهاته السياسية والفكرية والاجتماعية ، فهو مضطر أن يقرأ كل مـــا كتب علال ، وليس من السهل ان يتوفر كاتب على قراءة كل ما كتب علال الفاسى وأن يتبع فى نفس الوقت كـــل خطواتـــه القيادية » (10). فما العمل اذن ؟؟

منطلقان : شىء مثير للغاية اولا ان يتشيع (غلاب) الى حدود طمس الوقائع التاريخية من خلال شخصية علال ، فيعميه ذلك (وهو كما قال « لينين » ونحن نضرب مثالا بمثال فقط : يصم اذنيه لكى لا يسمع ويغمض عينيه لكى لا يرى) يعميـــه فقول عن رؤية التاريخ الوطنى من منظار آخر يتجرد قليلا مـــن نزعة التفسير المثالى المطلق . وهى ضيقة ومقلوبة على كـــل حال . بعبارة اخرى أن يتجرد من تطبيق علال على التاريخ . وحسنا فعل بذلك ، لانه يدعم وجهة نظرنا الرامية الى وضـــع علال فى اطار من الصراع والتناقض تجاه حركته البورجوازية كطرف وتجاه شخصه كفاعل فى هذا الطرف . ولقد أشرنا من قبل بصدد ابراز معالم النص الذى مر بنا ، ان هذه النزعة هى محصلة لرؤية ذاتية طبقية تعالج بها التاريخ الوطنى كموضوع لذات هى علال . الافكار بهذا الصدد هى التى تحدد اسلـــوب حياة علال وليس أى شىء آخر ، ومما لاشك فيه انهـــا هى التى حددت أسلوب حياة البورجوازيـــة المتوسطـــة فى مسيـــرتهـــا الاجتماعية . الافكار اذن هى الرابطة الخفية بين علال والتاريخ. وهذا عينه كما هو وضح ما تبيحه النزعة المثالية لنفسها من الكذب والاسراف فى التدليس .

وشىء مثير للغاية ثانيا ، ان قرءة علال كما يحذرنا غلاب : مخاطرة . انه من المفروض أن نفهم ذلك لان من أسلحة النزعة

المثالية (وهى مغلولة) أن تكسو الافراد هالة من القدسية تحجب بها عنا واقع تكوينهم الاجتماعى ـــ الطبقى ، فتقربهم من وراء ذلك بواسطة ذلك ، الى مصاف الافراد القلائل الذيـــن فـــازوا بالعناية الالهية مكنتهم من تغيير مجرى لعالم ، واذا لم نبتعـــد كثيرا قلنا مجرى التاريخ المغربى علي وجه التخصيص .

منطلقان كما قلنا (حتى نستمـــر فى القـــراءة) : الاول محكوم بالخط العام للنص والنصوص التى مرت بنا ، وهدفها (بين الترغيب الترهيب) أن تضع علال ، من خلال رؤية ذاتية مثالية فى مصاف العظماء القلائل الذين (ويجب أن نقول انطلاقا من خصوصية الاستعمار المعمم فيما يسمى بالعالم الثالث) ركبوا التاريخ على هواهم ، ولحسن حظ البشرية كان هواهم مصادقا نسبيا للتطور التاريخى العام الا فيما ندر . والثانى ، هو رأينا تحديدا الذى وقفنا معه عند محاولة رسم صورة ولو تقريبية لموقع علال من حركة الصراع الاجتماعى وضمن سياق تاريخى محدد . وعلينا أن نتابع الان من حيث يحذرنا الاستاذ غلاب بنوع من تشيعه المثالى « الرجيم » .

هذان المنطلقان هما التناظر المقصود فيما فسرناه سابقا. ومن الطبيعى أن ذاك يتم الان فى مستوى آخر ، نقصد مستوى ما ساهم به علال فى بناء التاريخ المغربى الحديث . اذا تجاوزنا الاطار الطبقى العام مع عودة سريعة الى علال المعزول هكذا، لوجدنا ان الخطوات الحقيقية التى أقدم عليها علال فعلا ، ما كانت لتستحق كل هذا الضجيج الاعلامى ، لان علال الفاسى لم يكن بكل بساطة ، فى معزل عن سياقه الاجتماعى ـــ التاريخى لم يكن يمثل أى شىء . أفى هذا القول مبالغة ؟ شخصيا أدعى ان لا ، ان النظرة الموضوعية تتطلب منا قبل كل شىء أن نجمع خيوط الموضوع، نعنى ان نركب علال وفق طبيعته الاجتماعية ـــ

الطبقية ، اى بعبارة اخرى ضمن السياق العام لتطور البورجوازية المتوسطة فى المغرب . وفى هذا التركيب ما يسمح لنا ، بما اننا راينا نسبة التاثير على الحركة الجماهيرية التى اخضعته البورجوازية الوطنية لمصالحها ، بتحديد **مركزية العمل فى نضالية علال بورجوازيا .**

الف : فهو من دعاة (السلفية الجديدة) فى المغرب ، بمعنى من انصار ما اسماه (محمد احمد خلف الله) «العودة الى الشريعة» وهى مسألة كما أضاف حديثا « تشغل البال » (11) . ويمكن الاستطراد هنا للقول : ان محمد أحمد خلف الله ليس متشددا (اذ يقبل بنوع من التحفظ هذه الدعوة فى حد ذاتها) بمثل ما كان شكيب أرسلان مثلا . ونأتى بهذا الاخير ضمن هذا الاستطراد ، لانه مارس على علال الفاسى تأثيرا لا يستهان به ، ذهب غلاب فى معرض حديثه عن الحركة الوطنية الى القول أنه (شكيب أرسلان) كان يرعى الحركة الوطنية فى المغرب بتوجيهاته القويمة (12) . ويجب القول لذلك : **ان علال الفاسى من موقع أستاذه شكيب هو اكثر تشددا بما لا يقاس ازاء هذه الدعوة . السلفية الجديدة كتمييز اذن ، مخطط للعودة بالحياة الاجتماعية المعاصرة فى المغرب الى المثل** الديمقراطية (ويجب أن نتحفظ بصدد اطلاقية من هذا القبيل) **التى عمرت فى التاريخ الاسلامى على امتداد تسعة وعشرين سنة** (نهاية حكم الخلفاء). وقد ذهب (مكسيم رودنسون) (13) الى ان هذه المثل الديمقراطية ليست فى مستوى ما يجب أن نتصوره بحكم عدة عوامل يطول شرحها ، منها على سبيل المثال استئثار الارستقراطية العربية على عهد المرحلة بكافة مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية مما يفرض على وجه التحديد استبعاد اية فكرة عن صورة مجتمع « مثالى » ، فالعودة بهذه الطريقة

اذن لايتم التفكير فيها من زاوية **سيادة نمط الانتاج الرأسمالي في المرحلة الراهنة من التطور الاقتصادي في المغرب ، انهـا بعبارة اخرى عودة بالرأسمالية الوطنية التبعية الى مرحلـة الديمقراطية** . بهذا الصدد من المفيد في تعليق سريع على هذا المنحى أن نتذكر راى (بتلهايم) (14) الذي يرى أن فـائدة الرأسمالية الوطنية ناتجة على نطاق واسع عن تبعيتهـا الاقتصادية للامبريالية . وقد صدق علال الفاسي نفسه في محاولة منه لاعطاء تعريف موجز السلفية الجديدة بقوله : « هي حركة تتناول **نواحي المجهود الفردي لصلاح المجتمع** »(15) ، فتكون العودة بذلك ، وهي ذات امتداد اصلاحي في العمق (وقد لا يعنينا مدلولها التاريخي في المرحلة السياسية التي انبثقت عنها) ذات شقين ، رهنت فيها البورجوازية المتوسطة ، بواسطة الطليعة الطبقية المنظمة (حزب الاستقلال) مجموع أهدافها المؤجل منها والفوري . نقصد : اجتماعيا ــ سياسيا وهذا الشق يطمح الى قلب مفهوم الحياة الاجتمـاعية وجعلـه في **تناظر تماثلي** (اذا صـح التعبير) مع التشريعات الدينية / الاجتماعية التي سادت في القرون الاولى قيام الدعوة الاسلامية. ثم شق اقتصادي ، يترك **التبعيـة** التي وصفهـا (بتلهايـم) منطمسة في حجر المفاهيم الاجتماعية العائمة والمضببة . بالطبع ان « صلاح المجتمع » هو بمعنى آخر اصلاح حال البورجوازية اقتصاديا ، وهو مالا يجب ان يعزب عن اذهاننا ونحن بصدد مراقبة ضمير « الحياد » البورجوازي المزعوم في الدعاية بكل معنى الكلمة . ولنتامل مرة اخر ىكيف يصادق علال الفاسي على ذلك بقوله « من الحق ان نؤكد أن امتزاج الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية كان ذا فائدة مزدوجة في المغرب الاقصى على **السلفية** وعلى **الوطنية معا** . ومن الحق ان نؤكد أن الاسلوب الذي اتبع في المغرب ادى الي **نجاح السلفية** لدرجة لم تحصل

عليها حتى فى بلاد محمد عبده وجمال الدين (يقصد الافغانى) « ... (16). ان هذا الكسب المزدوج هل كل ما يمنينا فى هذا الاستطراد ، والغرض أن نبيح الزعم لانفسنا بأن هذا الطرح فيه تأكيد ملموس **على توجيه سياسى ــ اقتصادى استقلت به البورجوازية المتوسطة عن مصالح الجماهير المغربية فى مطامح التحرر الديمقراطى والسياسى .**

ان **مركزية** العمل فى نضالية علال من الناحية النظرية ازاء مفهوم السلفية استمر فى واجهتين :

1 ــ رأينا ان البورجوازية الوطنية أكدت على وحدة « الامة » بالاستقلال من الناحية السياسية ، هى هنا تصوغ **مرة أخرى** مقولة نظرية قد تبدو تجريدية لكنها أشد ما تكون التصاقا بمصالحها فى العمل الاجتماعى ، نقصد ان **تكون السلفية الجديدة فى جانب كبير منها ــ وكما اوضح علال الفاسى نفسه ــ ردا على الطرقية على الاستعمار على تضعضع بنيات الحياة الاجتماعية والاخلاقية .. « للامة » المغربية .**

2 ــ وان يكون الوجه الاخر ضربا من ضروب العودة المأمولة، ولو على نحو طوباوى ، الى الحياة المثالى على عهد الديمقراطية الاجتماعية بتجاز كبير . نقول مع « رودنسون » ومع تحفظه ايضا : مجتمع عدالة ؟ (17) .

الواجهتان مترابطتان ، وتجيبان على نحو شديد الكثافة على اشكالية اقتصادية واجتماعية فى آن . ان هذا المنظور يربطنا من جديد بما سميناه عودة بالراسمالية الوطنية الى مرحلة الديمقراطية ، فهل من السذاجة أن يقول علال : « ان مراكش (يقصد المغرب) مهياة اكثر من كل بلد اسلامى لقبول الحركات التى تطالب **بالعودة للدين الصحيح** والعقيدة **السنية** . ويبدو

ان بساطة هذه الدعوة ووضوح طابعها يتفق الى حد بعيد مع سذاجة الصوفية المغربية » (18). لعلها فى الختام **سذاجة** صوفية «الراسمالية الوطنية » كما نفترض فى مجال هذه الدعوة بالذات .

ان هذا التوجه بصورة عامة قد ورط الحياة الفكرية فى البلاد فى اطلاقيات نظرية كانت مغلقة بمصالح ظاهرة . لا نخفى القول فى أنها كانت : **أنانية بورجوازية سافرة** . ومن وضعيتها آنيا (أى الحياة الفكرية) ما يحق لنا أن نتضامن (جزئيا) مع النهج الذى اختطه عبد الله العروى (19) — ولو بتحفظ — فى ابراز الطابع المتهافت للدعوة السلفية كمسلك اجتماعى جوابا على ما سماه (تطب) تحت عنوان دال « جاهلية القرن العشرين » (20)، ومخرج اقتصادى من ورطة التخلف والتبعية. ان ذلك محض **هراء نظرى** ، لا يلبث ان أن يتهاوى بفعل تناقضاته الداخلية ذاتها . لكن ، مع هذا من المفروض أن نسجل ان دور علال الفاسى ، تحت الدعم الدائم للبورجوازية المتوسطة **عمليا** ، اثر مباشرة على بعض الاخفاقات الاجتماعية فى المغرب . واذا أمكن ، فلنتمعن بروية **وهدف** فى برنامج حزب الاستقلال اذا أخضعناه لشروط الصراع الطبقى فى المغرب .

بـاء — ان السلفية الجديدة كانت بصورة أخرى **نقداً** للبورجوازية وبعثا للبورجوازية . ان الطابع المزدوج الذى يباغتنا فى معالجة دور البورجوازية الوطنية فى المسيرة التاريخية بالمغرب ، هو قبل ان نمر الى تحليل المقولة السابقة ، من التعقيدات الاستثنائية تاريخيا ببلادنا . نلاحظ أولا ، أن الاستعمار (كعامل خارجي) كان له أثر ملحوظ بل وحاسم فى بعض المراحل على ازدواجية من هذا النوع ، ثم لا يجب أن نغفل عن التوجه الطبقى من **تحتها** بما أن الصراع **كله** يمر فى واقع معين،

فى محيط جماهيرى ، بازاء طبقات اجتماعية ، واستنادا الى مصالح محددة . نقول الآن : أن السلفية فى جانب كبير منها كانت نقدا للبورجوازية — وهو نفس النقد الذى سنصادفه مرارا فى (النقد الذاتى) نقدا لها على وجه التحديد من **التحجر الاخلاقى والتزمت الدينى واحادية منظورها الاقتصادى وتبعيتها السياسية وركودها الاجتماعى** . كل ذلك دفعة واحدة ، كل ذلك مرة اخرى بما انه دفعة واحدة ، فى سبيل **بعث** اقتضت ضرورة التمويه أن يكون فى صورة **عودة الى** ... بينما الاصل هو بعث البورجوازية المتوسطة . كما ان الاصل هو اعطاء هذه البورجوازية علامة البدء فى «صنع» الحياة الاجتماعية وفق بياناتها المصلحية . وهذا امر لا نحتاج الى عناء كبير فى التدليل عليه . ولهذا الاعتبار أيضا لا يجب أن نطيل فى تأكيد مدلولات نقد البورجوازية — بعث البورجوازية . انما يمنينا أن نستفهم التاريخ قليلا عن معنى هذه الحركة فى النصف الاول من القرن العشرين . وهذه بعض الاجوبة .

أ — ان **التطور** البورجوازى فى المغرب استند فى الاصل الى بعض التحولات النوعية (اقتصادية بالدرجة الاولى) التى استحدثها الاستعمار الفرنسى فى حينه بالمغرب . ونعتذر للقارىء حتى نورد هنا **نصا** يكفى فى الدلالة . يقول السيد (دوكان) خلال اجتماع عقد فى مقر الاقامة العامة بتاريخ (1922.7.6) « **اننى أتفق** مع رئيس دائرة مراكش فى موضوع مبدا كراء 1200 هكتار الى السيد Regnault فى مدى 40 سنة من اراضى تسلطانت ، ولكنى اقترح فى نفس الوقت **خلق** اراضى مفرزة مخصصة للاستعمار الصغير والمتوسط على قدر من المساحة مساو لتلك على الاقل ، واقترح أيضا الاحتفاظ بعدد من الحصص للسكان . **ان انا ربحا كبيرا فى تسهيل خلق شكل**

البورجوازية الفلاحية المحلية لا توجد فى ناحية مراكش ، وانى ستكون بالنسبة لنا سندا معقولا من الوجهة السياسية » (21).
وكان لهذا الاستحداث دوره الملموس فى نقل البورجوازية بصورة عامة الى ميدان العمل السياسى والاقتصادى (الصدارة الاجتماعية والتسويق الداخلى مثلا)... الى آخره ، واننا لنعتقد فى تعارض مع عبد الكريم غلاب ، أن الاصل فى هذا التوجه يكمن بالدرجة الاولى فى الواقع الاقتصادى نفسه للبورجوازية المغربية ، قبل ان يكون مرتبطا بأخلاقيتها ، وعن هذا الاصل تفرعت مشاركة البورجوازية المتوسطة فى العمل السياسى الوطنى المنهجى كتحوير لضعف استفادتها من الوضع الراهن ، ثم كوعى منها (وهو وعى على نحو شديد من الرهافة) بارتباط جزء من مصالحها بمصالح الحركة الجماهيرية (الفلاحين الفقراء والتجار الصغار والصناع وبعض الفئات الاخرى من البورجوازية الصغيرة)، كل ذلك فى تعارض مع مصلحة الاستعمار الفرنسى والبورجوازية التجارية والعقارية والكومبرادور فى المغرب . (خصوصا بعد 1948). من هذا المنظور نرى أن نحدد أن علال الفاسى ــ وهو ضمير طبقة ــ قد وعى هذا التوجه فى حينه وبرز فيه داعية مجدا عندما قال : « يكاد العهد الذى يفصل بين 31 مارس 1912 و 16 يونيه 1930 أن يكون عهد كفاح عسكرى محض لان الاغلبية الساحقة من سكان البلاد أعلنت الثورة بعد توقيع الحماية ولم يمكن اخضاعها لها الا بعد جهود جبارة وبصفة تدريجية ، ولان نخبة الجيل الذى سبق الحماية أو عاصرها التجأت كلها الى الجبال تقود الثورة وتدبر الكفاح . والذين غلبتهم القوة على أمرهم اصيبوا بدهشة العسكرى المغلوب الذى لا يستطيع أى عمل بعد تجريده من السلاح فكان لزاما هذه الدهشة العامة أن تنتظر نشوء جيل جديد متشبع بروح المقاومة السلمية التى لا

تعطي السلاح المقام الاول في حل معركه »(22) . فلنراقب جيدا هذا الميـل السيـاسي الي التشبع بـروح « المقاومه السلميه » ولنختبره في مجال الممارسة الاقتصاديه . . .

2 ـ انطلاقا من هذه الارضية كونت البورجوازية صوره من نفسها . نكاد نقول كما عبر ماركس (انتقدت ذاتهـا) عشيه ان اصيبت بناياتها الاجتمـاعية والاقتصاديـه بهـزات ملحوظة . ان الوعى البورجوازى فى هذا السياق يرتد الى ذاته فى محاولة لتجاوزه ، او على الاصح فى محاولة لبناء ذاته على نحو شديد التماسك والصلابة . تلك مسألة تمت فى اتجاهات شتى بالضرورة ، لكـن يكفينـا ان نلاحـظ أن البورجوازية المتوسطه ، لم تكن متضامنة مع السياسة الاستعمـاريـة فى تفاصيلها الدقيقة ، وبصورة مؤكدة لان أطروحاتها الديمقراطيـة فى فترات المد الاستعمارى كانت تعنى بقاءها حامية لاشكال المواجهة الوطنية ضدا على التوجه الامبريالى (نلاحظ علـى سبيل المثال أن البورجوازية الوطنية عندما تطالب بالاصلاح الزراعى ، وهذا مثال فقط ، فهى تعمد الى هذا الاعلان بالمطالبة من زاوية اقتصادية بما فيه الكفاية ، ولعله يمكننا أن نلاحظ أيضا ، مع ضعف قاعدتها الاقتصادية فى المغرب ، أن مطلبها هذا ، يدور حول اطروحة محددة : التنظير للنمو فى الطريق الراسمالى من جهة ، والدفاع عن المصالح الطبقية من جهـة اخرى ، طالما أن المطالبة بالاصلاح الـزراعى كمـا تفهمهـا البورجوازية الوطنية بالمغرب ، لا تعنى أكثر من استرجـاع أراضى المعمرين الاجانب تحت شعار « الارض لمن يفلحهـا » وكراؤها لمن هم على قدر معين من الحاجة اليها .. (23)).

هناك اذن طريقان فى الاختيار البورجوازى الوطنـى ، يحددهما اولا موقعها الاجتماعى ورؤية مصالحها ضمن حدوده، ثم ثانيا وعيها بشروط هذه المصالح فى فترة تاريخية محددة

وآفاق تطورها العام . اذا كان واقعها على عهد فترة الاحتلال الاستعمارى لبلادنا **موقعا** بخصيصة **اندفاع عن المصلحة الوطنية العامة** ، ثم منه بل وفى ارتباط معه كونت لنفسها على عهد الاستقلال المشروط **اختيارا** مضبوطا تمثل فى وعى مصالحها على نحو شديد الحساسية ، الامر الذى أوقعها فى **تعارضات** اشرنا الى بعضها ، خصوصا ضمن السيادة التى تمثلها اوتوقراطية ، الكومبرادور ، مما يجعل منها بعد كل فترة من النضال المحدود المرتبط بأفق تطورها العام ، تراوح فى تحديد اختياراتها جهة ما يسمح لها بحرية التحرك . وحرية تحركها بهذا الصدد مرهونة بواقعتين : تطور النضال الجماهيرى واستقلاله عن مطامح البورجوازية المتوسطة ، ثم باحتداد حركة الصراع الطبقى وبروز تيار جذرى يعاكس مصالحها ومصالح الطبقات المسيطرة عموما .

لكن ، ما موقع علال الفاسى ضمن هذا ؟؟

لنعد الى الموضوع بهذا النص ، يقول : « ولم تكن هذه الحركة (ويقصد السلفية) قاصرة على الدعوة ضدا على الخرفات . بل تجاوزتها لحث الشعب على العلم والدعوة الى اصلاح شامل ومقاومة الجمود فى كل فروع الحياة »(24). ولنؤكد مرة أخرى ان البعث البورجوازى لم يكن له من اختيار آخر غير هذا الطريق : **الاصلاح** ، وهو اصلاح اذا أخضعناه للواقع العملى ، رايناه من جديد يمر بالطريقين اللذين اشرنا اليهما اعلاه . **هناك اختيار محدد من اجل (النقد الذاتى البورجوازى) يتمثل بصورة خاصة فى مقاومة الجمود العقائدى.** وهذه الزاوية تطل بالطبع على ضرورة الاصلاح الاجتماعى مما يمكن سيادة البورجوازية على راس الهرم الاصلاحى **كقائد** ومرشد ، وهناك الى ذلك « حث الشعب على العلم والدعوة

الى اصلاح شامل » كطريق محدد يرمى الى وضع الاختيار السياسى للنضال البورجوازية الوطنية فى تعارض مع مصلحة الاستعمار فى السيادة المطلقة ، وهو فوق ذلك يضرب على احدى المطامح الاصلاحية للبورجوازية فى تحديد نموها مستقبلا ، بمساندة حركة جماهيرية واعية بدور البورجوازية فى الاصلاح. والعلم فى هذا السياق ليس تمويها وكفى ، انه بالاضافة الى ذلك احد الاختيارات الاساسية حتى تستطيع **حركة واعية بمصالحها** أن تقود (تغييرا واعيا) ايضا يخدم هذه المصالح على المدى البعيد . يمكن أن نلاحظ هنا مع عبد الكريم غلاب (25) أن « المجلات العربية والاسلامية التى كانت تفد من مصر وفلسطين وسوريا والجزائر كان لها أثر قوى فى تدعيم الحركة السلفية ومقاومة الدجالين من الطرقيين . وقد **التفتت النخبة الواعية** من شباب المغرب حول بعض هذه المجلات **كالشهاب** التى كان يصدرها (المرحوم) الشيخ عبد الحميد بن باديس فى الجزائر يكتبون فيها ويتداولون قراءتها **والتبشير** بمقالاتها . وكان من كتابها المغاربة محمد اليزيدى . وكان علال الفاسى يزودها بمقالات وقصائد **تصحح** الفكرة الحقيقية من **دين العمل والنضال** » . فعلال الفاسى اذن ، وقد الح على العلم ، بعبارة غلاب وقد الح على « تصحيح الفكرة الحقيقية عن دين العمل والنضال .. » كان يرمز بشكل مباشر الى **بعث يقضى على الفوضى الاجتماعية بما يناسب امتداد حركة النضال البورجوازى ، ويقضى من ثم على أسباب التخلف بما يناسب تطوير المصالح الاقتصادية تحت غطاء التشريعات الدينية المقبولة فى مرحلة لاحقة ، نعنى فى مرحلة يكف فيها التناقض القومى أن يكون مع الاستعمار الفرنسى** . ومن الحق أن نقول أن انسحاب هذا النوع من التناقض الى الوراء قد تم فور أن تسلمت البورجوازية استقلالها السياسى المشروط

وكانت فائدتها الاقتصادية لا تنفك تجد فى التبعية احد مبررات بقائها . لكن ، بقوة الاشياء هذه المرة انتقل علال الفاسى من ميدان **العمل السياسى** الى ميدان **التشريع النظرى** ، اى انتقل من بعث البورجوازية الى نقد البورجوازية (وعلال الفاسى بالمناسبة يسمى البورجوازية : الطبقة المنافقة)، بعبارة أخرى، **انه انتقل من بعث البورجوازية بمقاومة الاستعمار السياسى القديم ، الى نقد البورجوازية بالتبعية الاقتصادية للاستعمار الجديد** . ومن الطرافة بمكان ان نرى هاهنا كيف أن العلم كان سلاحا فعالا « فى كل فروع » النشاط البورجوازى .

ان التاريخ كما يظهر لنا من هذين النقطتين يسعفنا بدون ريب بوقائع تكشف عن طبيعة الصراع الطبقى ، وهذا أحد الجوانب الرئيسية للتطور الاجتماعى فى المغرب . لكنه يسعفنا ايضا بما خفى عن البورجوازية نفسها ، اى ما يمكن ان يرتد الى « صدرها » . والمعنى هنا يقوم على اعتبار ان الخط العام لتطور البورجوازية الوطنية المغربية منذ 1930 على وجه التقريب سار وفى حركات غير منسجمة من منظور تبنيها لمصالحها فى الغالب وليس لاى شىء آخر . ولعلنا نقصد هنا الرد على بعض الدعاوى التي تفسر حركة التطور البورجوازى فى بلادنا كمحصلة لتطور البورجوازية الذاتى . ان الخطأ بدون ريب ، يتم فى الحالات القصوى باغفال « المنظورات الاصلاحية » للبورجوازية او وضعها فوق الصراع ، وفى الحالات الادنى بتبنى موقف مضاد ازاء حركة الجماهير التى كانت لها فيه سندا مباشرا ولا غني عنه ، والتى تصارع فى الوقت الحاضر الهيمنة البورجوازية كجزء من السلطة الطبقية السائدة فى البلاد . لكن ، فى الاخير ، كيف نرتب خطوات سيادة الفكر البورجوازى على فئات واسعة من الحركة الجماهيرية ؟ . ثم من الناحية

الايديولوجية كيف نفسر ظروف استمرار أسلوب التبشير السلفي ـ التعادلي ؟ (26).

ان مبررات هذا الطرح من الناحية الاجتماعية والتاريخية والسياسية هي التي تقودنا الى وعي مركزية العمل في تنظيرات علال ، وبه آلية التطور البورجوازي على قاعدة من الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي في البلاد . ومع هذا ، فنحن لا نطمح هنا اكثر من توفير شرعية ضرورية مبررة موضوعيا لقراءه علال من زاوية طبقية . فهل تراه بما عهد فيه من دفاع عن الحرية كان سيقف دوننا مانعا ؟ لا نعتقد . وبما أن الامر كذلك فيجب أن نرسم الحركات الاتية في مجال رصد الاخفاقات الاجتماعية بحركة تطور البورجوازية الوطنية ، وهي بتلخيص مكثف على نحو ما يأتي :

أولا انتقل علال الفاسي من النضال الوطني الى المقاومة الرجعية بحركة معقدة تجد معناها في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي صاحبت مجرى تاريخنا الحديث منذ 1912 . وقد كان هذا الانتقال مأخوذا في مرحلته الاولى بالنضال السياسي الذي تجاوز به المقاومة المسلحة ، ثم محمولا على ذات النضال السياسي متجاوزا به ظروف الصراع الطبقي في المرحلة الثانية . مما يعني أن حياة علال « كزعيم » سياسي ، كمنظر أيضا كانت حياة تطور البورجوازية الوطنية (المتوسطة) في المغرب . لكن هذا التطور لم يكن أحاديا دائما، من ناحية قد عاصر التحولات الاجتماعية التي استحدثها الاستعمار الفرنسي في البلاد ، ثم قام في وجهه بدعم من الحركة الجماهيرية الملتفة حول شعاراتها الاساسية (الاستقلال والديمقراطية) . ولكنه كان من جهة اخرى يضع الخطوات الاولية في قهر المد الجماهيري الى ما يضمن به سيادة مؤقتة .

وبالطبع لقد جرت هذه السيادة فى وقت كان موقع البورجوازية نضاليا يؤهلها لفعل ما يناسب تطورها ، ولو اقتضى الامر بالطبع أيضا اجهاض حركة المقاومة المسلحة ، ثم ولو اقتضى الامر ايضا بالركوب على التطور السياسى فى البلاد وجعله فاعلا من خلال معارضتها المزعومة . لكن تطورا من هذا النوع ، يسير ضمن الافق الاصلاحى للبورجوازية الوطنية كما علمنا علال الفاسى (بما أن السلفية لم تعد ذات جدوى فى التبشير) سوف يجعل منها صمام امن يردع كافة التحولات التى تتجاوز مصالحها ، خصوصا من موقع الحركة الجماهيرية ذات المرتكزات الراديكالية . ولا ريب ، فهاهنا ما يمكن أن يكون دليلنا مؤقتا فى الحكم على الامر الواقع الذى آل اليه المسار العام للتطور البورجوازى الوطنى (27) .

ثانيا : نعنى بالامر الواقع :

ا ـ انحسار المد الوطنى الذى قادته البورجوازية المتوسطة لفائدة تطورها العام .

ب ـ تنامى المد الجماهيرى منذ أوائل الستينات بما يتجاوز النقطة السابقة ، ومواجهته لكافة الاحباطات الاجتماعية والسياسية التى تعترض حياتنا المعاصرة ، لكن المعنى هنا ، كما لا يخفى ذلك ، هو تقدم الحركة الجماهيرية فى اتجاه معارض لسياسة البورجوازية . مما دفع البورجوازية المتوسطة (ونحن نتكلم هنا عن القيادة الفعلية) الى تسلم موقع المعارضة الذيلى كتعبير ضمنى عن وضعين: ضعف استفادتها من الوضع الراهن كما قدمنا، خصوصامع اتساع التبعية الاقتصاديةللسوق الامبريالى العالمى، وبروز فئات من صلب تطورها (الكومبرادور) متحكمة فى الامكانات الاقتصادية الوطنية . ثم ، وهذا هو الوضع الثانى

اجترارها ، تحت غطاء من الدعاوى الاخلاقية ، لايديولوجية تستمد تصورها الدينى من مجتمع تعادلى « مثالى » يطمح القضاء على الفروقات الاجتماعية وتحقق العدالة ويوطد الديمقراطية . لكن ، من الافضل ان نقول ان هذين الوضعين يسيران وفى ترابط شديد نحو افلاس نهائى .

فالامر الواقع اذن ، هو هذا الوضع المتذبذب الذى وجدت البورجوازية المتوسطة وبه تستمر ، بين السيادة الفعلية للاوتوقراطية — الكومبرادور ، وبين تنامي المد الديمقراطي الوطني مجسدا فى حركة اجتماعية واسعة تستقطب الجماهير الحقيقية التى تهمها مسألة التغيير الديمقراطى فى المغرب . ولعل ترجمته الملموسة فى الدعاية هى بالمعارضة البرلمانية سياسيا، وبالسلفية الجديدة ايديولوجيا، وبالتعادلية فى الميدان الاقتصادى وبصهر التراتب البنيوى ضمن وحدة تكوينية منسجمة فى الميدان الاجتماعى . ويمكن القول ان الاطار العام لاحداث هذا الانصهار هو افتراض قيام المدينة « الفاضلة » (= التعادلية) على غرار ما أفترضه (الفارابي) للذكرى ، بعبارة أخرى : دولة العلم والايمان كتجسيد مصرى ساداتى للمشكل فى الربع الاخير من القرن العشرين ، على نحو مضحك ، لكن ، باستدراك سريع: أين الحقيقة من الخيال فى الاستطرادات « اللاهوتية » ؟؟ !

ثالثا : هذا التصور يربطنا من جديد بآخر ما غامرت به السلفية الجديدة عبر تطورها ، نعنى بالتعادلية والديمقراطية، وهما وجهان لعملة واحدة كثيرا ما سمعنا ان حزب الاستقلال لا يفصل بينهما . فالتعادلية ضمن هذا السياق ليست فكرة جديدة ، انها فى فكر علال الفاسى من الناحية الناحية النظرية ذات مرتكزات دينية مصدرها الشريعة الاسلامية . وهى لا تصمد بالطبع أمام حدة الصراع الطبقى فى البلاد بما ان القضية

كلها تجرى فى محيط الاستغلال الاقتصادى والقمع الايديولوجى. وهى لا تصمد مرة أخرى بفعل تناقضها الذاتى الضمنى . ذلك انها حين تعرض ضرورتها من خلال تحليل سياسى للواقع الراهن ، انها تعرض أدعاء ايديولوجيا مفضوحا : ذلك بالسكون من الاستغلال وجمع ما لا يجتمع بين الاضداد والمتناقضات : الاستغلال والتعادلية وكيف ؟ القمع والديمقراطية وكيف أيضا ؟ ... الى آخره . فهل يكون معنى هذا أن السلفية السلفية الجديدة هى محض دعوة تقنية ؟؟. أن الامر ليس كذلك، فمع أن مصدرها الدينى يرتبط بالديمقراطية (على نحو ما) الا انها لا تقف عند هذا الحد ، بل تتعداه جاعلة من نفسها مفتاح التطور المستقبلى للحياة فى المغرب . انها بعبارة اكثر تحديداً تتجاوز الاستغلال بالتعادلية ، ولكنها لا تجيب عن : كيف يمكن تجاوز تعادلية البورجوازية المتوسطة بوضعية الجماهير المحرومة بل كيف يمكن تجاوز تعادلية البورجوازية هذه بالتبعية الاقتصادية التى تقودنا الى مسارب الطريق الراسمالى؟؟. وبما أن الاختيارات جد محددة ، فالمسألة تنطرح فى الأخير على هذا النحو : التعادلية أم الثورة الوطنية الديمقراطية ؟ (28) .

ان هذه الحركات الثلاث هى التى تعنينا فى فكر علال الفاسى وبما أننا لم نتعرض بعد لموقعها الحالى من التطور فى بلادنا، فيحسن أن نسجل بدءاً أن السياق العام الذى انوجدت فيه كان على علاقة حميمة بالتطورات النوعية التى جرت فى المجتمع المغربى . ومن السهولة ان نلاحظ أن فكر علال انتقل معها من موقع الى آخر ، **ولكن الخيط الرفيع الذى ظل يحكم هذه الانتقالات فى الجوهر ، هو نفسه فى كل الحالات : المصلحة الذاتية للبورجوازية المتوسطة . (29)**

ومع هذا فمن الحق أن نشهد لعلال الفاسى بطول المعاناة الوطنية فى الميدان السياسى ــ الاجتماعى . وما ذلك الا لظروف

آخرى جعلت من الهيمنة الاوتوقراطية ـــ الكومبرادور واقعـــا يحكم فى المرحلة الراهنة كافة الاختيارات الاساسية فى الميدان نفسه . لكننا ، اذا كنا نسجل هنا وفى اعتبارنا عامل انصراع الطبقى ، فمن المنطقى أن نقول أن علال لاخر مرة فى حياته ظل مشدودا بحسه ووعيه الحاذقين الى كيفية الخروج من مأزق التطور الراسمالى ، وجعل الحياة الاجتماعية والاقتصاديه فى المغرب مقبولة على نحو أو آخر . وماهذا الاهتمام الا حالة فريدة فى تصورات علال . فهو نفسه كان يضرب ضربتين فى آن : أن يعطب نمو الحركة الجماهيرية لان فى استقلالها عن حركة البورجوازية المتوسطة اضعاف سلطتها الاجتماعية والايديولوجية، وأن يســاند ، هذه هى الضربة الثانية ، نمو هذه الحركـــة ضمن الافق الاصلاحى لبرنامج حزب الاستقلال والمحـــافظـــه والثبات الاجتماعيين بصفة عامة . فهل يجب أن نـــرى فـــى الضربتين مغامرة البورجوازية المتوسطة بجعل مستقبلها رهين التحولات العميقة فى البنيات الاجتماعية والاقتصادية بالبلاد ؟ ذلك وارد فى آخر التحليل . اما الآن فلابد من هذا التساؤل : كيف نجد هذا التطور منسجما مـــع النص الـــذى أوردنـــاه فى الصفحات الاولى من هذا الفصل ؟ . والحقيقة أن لاشىء يدفعنا الى هذه المقارنة غير الاهتمام بجعل علال الفاسى خير شاهد تطوره . بهذا الصدد هناك امكانية وحيدة أشرنا اليها من قبل : علال فى **حركته** . واذا تجردنا من اغراءات التمويه البورجوازى بدا لنا ذلك طريقا لا مفر منه . وهو ما حاولنا القيام به من خلال قراءة جزئية لسيرة احد الوطنيين القلائل ببلادنا . فكيف مرة أخرى يظهر لنا هذا التطور على ضوء (النقد الذاتى) ؟. ان ذلك يقتضى أن نوضح فى البدء ما يلى :

ان المنطلق فى جعل النقد الذاتى يراهن على اعادة درس خطوات « الامة » بما يجدد كيانها ويصلح حالها وحال رعيتها،

المنطلق نقول فى ذلك : **دينى** . فليس ببعيد الا يكون علال الفاسى الذى ناضل فى صفوف السلفية من وجهة نظر « الوهابية » قد خمن لحظة فى القيام بذلك من زاوية انسجامه (كليا أو جزئيا) مع ما يفرضه الدين الصحيح على مريديه (المعاصرين)، أى فى وقتنا الحاضر .. واذا كان المنطلق فيما نقرر هو الدين فان علال هنا يجيب على مسألتين بهذا القدر أو ذاك : مسألة تجاوز الجمود الدينى — الاخلاقى بما يعطى للدين طابعا عصريا منسجما مع التطور التاريخى ويمنح الفرد قدرة على تكييف حياته معه ذات الوقت ، ثم مسألة استنهاض « الكسل » البورجوازى ودفعه الى ميدان العمل الاجتماعي ، أى بعبارة اخرى اعطاء المضمون الدال لنهضة البورجوازية المتوسطة بصورة عصرية منسجمة مع تكوينها الذاتى وفى الاتجاه الذى حملت به مصالح باقى الطبقات الاخرى الى الاستقلال السياسى المشروط فى سنة 1956 . ويجب ان نقول أ ن هذا الطموح الثانى لم يكن دائما ملحا ، بله لم يكن فى مستوى ما آل اليه التطور التاريخى فى بلادنا خصوصا بعد 1956 أيضا ، اذ سرعان ما ظهر **ان البعث البورجوازى الذ ى يريده علال ما هو فى آخر المطاف سوى وهم أصطلاحى ابتلعه التطور الراسمالى فى البلاد واخذ صفة تبعية سافرة لمصالح الاستعمار الجديد** . ان البعث البورجوازى الذى راهن عليه علال الفاسى كان فى حقيقة الامر بعثا لشروط التبعية الجديدة ازاء التكنولوجيا وما شابه التى تقدمها الدول الرسمالية لدول (العالم الثالث) ومنها المغرب انطلاقا من شروط خاصة كما لا يخفى . وبهاذ المعنى نستطيع لن نفسر جوهر التمادلية فى البعث البورجوازى . انها بالضرورة سلطة « تعادلية » طبقة ضد طبقات أخرى . وهذا هو الاختيار الاساسى : اختيار علال الفاسى وحزب الاستقلال بل واختيار الاصلاح الدينى المطعم بليبرالية القرن الثامن عشر وعقلية

السلف الصالح وطموح البورجوازية المتوسطة الى السلطة .

بيد أن هذا الخيار لم يكن لينسجم دوما مع مقتضيات الواقع السياسى والاقتصادى فى البلاد . وطالما القيادة الفعلية للبورجوازية المتوسطة فى المعارضة ، طالما تمر من بين يديها حوادث تقرر مصيرها وتفرض عليها مسؤوليات صعبة فى حقيقة الامر . ويكفينا أن نرى ذلك ولو فى جزء يسير من التجربة الدسورية بالمغرب . لكن الذى استمر يعزز مكانتها فى التاثير الاجتماعى والايديولوجى هو العنصر الذى أتينا على تعريفه بمقاومة الجمود الاخلاقى والتزمت الدينى ، فهذا كان طريقها دوما نحو تجديد ذاتها بقدر ما كان طريق الحياة الاجتماعية فى البلاد الى تجاوز بعض « المعاملات » الاخلاقية التى أفرزتها العلاقات السائدة فى مجتمعنا تحت سيطرة شتى انواع الاحباطات .

ضمن هذا السياق أراد علال الفاسى ان يقوم بالنقد الذاتى متوجها عن **قصد ودراية** الى البنيات الراهنة : الاستعمار الفرنسى ، البورجوازية ـ النخبة ، المحافظة الرجعية ذات الرواسب الاقطاعية . لقد كان عليه **أن يلعب دور مناضل بورجوازى منذ اللحظة التى فكر فى ذلك** . بل كان عليه أن يلعب دور الرائد فى وضع قاعدة الحياة الاجتماعية على اسس من التفكير البورجوازى ، وقد لخص « البرت حورانى » هذا المنحى بقوله : « نقد علال الفاسى زعيم حزب الاستقلال المغربى ، الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى ، ووضع مخططا للاصلاح وذلك فى كتاب يكشف عنوانه عن محتواه دعاه (النقد الذاتى) ففيه يستهل الفاسى كلامه بتفنيد الاتجاهات الفكرية الخاطئة حول القضايا الاجتماعية والدينية وبتحديد الاتجاه الصحيح . وهو يشرح بنوع خاص ما يجب ان نفهمه بالامة ، فيقول ان

الامة تنشأ من العلاقة القائمة بين ارض معينة والشعب القاطن فوقها ، وعلى هذا فهناك أمة مغربية (شمالى افريقية) قائمة لذاتها كونتها طبيعة الارض والماضى . ولا يمكن فصل حياتها القومية عن تعاليم الاسلام ، وما التفكير فى فصل الدين عن المجتمع وفى اقامة الدولة العلمانية الا من نتائج المسيحية واختبار اوربا ، وهو تفكير لا يمكن أن يظهر فى المجتمع الاسلامى وليس من حاجة لظهوره فيه . اذ أن الدولة الاسلامية لا ترتكز الا الى الدين المفسر تفسيرا صحيحا . وتعتبر نظرة علال الفاسى الى الاسلام على وجه العموم كنظرة محمد عبده اليه . فالاسلام يجل العقل والحرية ويشجع على التقدم ويرفض جميع الوسطاء بين الانسان والله . والاسلام يجب أن يكون قاعدة للتربية القومية الصحيحة وللنظام الشرعى الحديث ، وليس ما يمنع الاسلام من ان يكون قاعدة الحياة الاقتصادية أيضا .. »(30)

من هذا التوجه يجب ان نستخلص المستويات التى حاول علال ان يضع لها حلولا راهنة موجها بها اذا جاز لنا القول : ذاكرة التاريخ المغربى ، خصوصا فيما يتعلق بالميادين الاجتماعية والاقتصادية والفكرية . لقد اراد ان يكون صورة عن الماضى المشرق من خلال رؤية الحاضر المعتم ، لرسم مشروع المستقبل ضمن اطار بورجوازى صرف ، يحتل فيه مفهوم وحدة «الامة» وازدهار تعادليتها الاقتصادية ورخائها الاجتماعى ، المركز المحرك لباقي التطورات الاخرى . وفى هذا معنى تشديده بدرجة كبيرة من الالحاح على تجاوز الوضع الراهن ، اذ به يصادق علال الفاسى على انصرافه كليا الى التأمل حول مستقبل العالم الاسلامى ، فهذا كما يجب ان نفهم هو ذاته محور الاهتمام من خلال المغرب الاقصى كنموذج مصغر . (31) .

لاريب الآن أن التطور السابق ضمن الصفحات التى عالجنا

فيها بعض ملامح شخصية علال تدفع بنا الى القول أن **النقد الذاتي بعبارة أخرى هو حركة علال فى معرض بناء التصور البورجوازى للعالم** . مما يفرض القول أن هذا البناء (الذى أراده شامخا) يستوفى من الناحية النظرية شروط نضجه كاملة، كما أن تجسيده العملى (على الاقل فى برنامج حزب الاستقلال) كاد أن يكون دالا على مرحلة بكاملها (1956 فما بعد). لكن هذا البناء فى حد ذاته ما كان يستحق أن يكون محفوفا بهذه الاعتبارات ، لو انه لم يقترح حلولا عملية نصت فى المرتبة الاولى على ضروره تخليص « الامه » المغربيه من قيود الاستعمار الاجنبى واجراء تحويرات معقولة على بنياتها الاقتصاديه والاجتماعيه ضمن السياق البورجوازى ، تتجاوز به مخلفات الاستعمار القديم ، لتقبل بروح متفتحه على الانجازات العصرية التى يضمنها الاستعمار الجديد للطبقات « المحظوظه » (مع التحفظ ازاء هذا التعبير) فى البلدان « لمستغله والمسيطر عليها وذات اقتصاد مشوه » بتعبير (بتلهايم). (32). وكان علال الفاسى يعى أن التوجه بهذه العدة النظرية يستدعى ، فى المقام الاول ، مخاطبة « النخبة »، وهو امر واقع فى ذهنية مثقف بورجوازى حتى العظم كعلال الفاسى ، طالما أن النخبة هى على نحو ما عصب المجتمع الحى ، انها بعبارة اكثر تحديدا، امتدادات الفكر البورجوازى فى الواقع ، تبشر به على نحو، يصح أن يكون مطابقا فى ذهنها لضرورة بناء مجتمع تصبح هى فيه قائدته طبقيا وسياسيا . (33) وكان علال مرة اخرى بعد أن فرغ من النخبة ، قد اعتبر **الشباب** على نحو اطلاقى ، حامل رسالته فى مجال التمرن البورجوازى . فرهن **الدعوة** بالنخبة والشباب ، وجعلها مطمحا يتحقق بهما ، لهو منحى على نحو عميق من الدلالة السياسية والايديولوجية . أن الافتراض الاول الذى ندلى به بهذا الصدد ، مؤداه **أن علال كان يدرك**

جيدا اخطار ما بعد الاستقلال ، اذا لم يحدد ، وهو الذى سخر حياته ونشاطه لهذا الفرض ، آفاق التطور الذى يضمن لحركته موقعا متقدما . وقد وعى علال ذلك حين صرح بعفوية بالغة ، أن الهدف من النقد الذاتى هو « تحقيق الاصلاحات المميقة التى تنشدها امتنا متى تم لها الاستقلال وظفرت بالحرية ، حتى لا يقع لها من التبليل ما يشككها فى قيمة الكفاح الذى تبذله الآن بالنسبة لتقدمها ولحسن حالها » (34). ان هذا الافتراض اذا وضعناه بجانب مفهوم النخبة الذى مر بنا ، يؤكد علـى نحـو مفهوم ، ان آفاق التطور المستقبلى التى تراءت لعلال فى النهوض بحياة « الامة » لم تكن سوى آفاق تطور الوعى البورجوازى مرورا بحركة تطور البورجوازية الذاتى . ولا ادل على هـذا الاستخلاص من قول احد الاقتصاديين المغاربة بعد حوالى 22 سنة من صدور النقد الذاتى ان « المغرب يجتاز منذ 1960 ازمة حادة شاملة وخصوصا فى المجال الاقتصادى والاجتماعى. ذلك أن الوضع الاقتصادى والاجتماعى يوجد بالفعل فى تدهور كبير اخذ منذ 1965 يزداد سرعة وتفاحشـا » (35) ممـا يعنى (ولو ان الدكتور محمد الحبابى ما زال يجتر بهذا النص أوهام النمو الاقتصادى السريع الذى خططت له حكومة عبـد الله ابراهيم الوطنية (24 ديسمبر 1958 — 21 ماى 1960)) ان « النظرية الصحيحة » التى خطط لها علال الفاسى واجبـر النخبة المغربية على القبول بها ، قد ابتلعها التطور الراسمالى فى المغرب استنادا الى اختيارات الاوتوقراطية — الكومبرادور. من هنا ندرك ان تأملات علال فى مجال كهذا لم تكن على أهمية كبيرة فى التبشير . ربما كانت العلة فى النخبة التى أولاها كبير وقته فى التلقين . لكننا نؤكد ان اختيارات الحركة الجماهيرية فى المغرب لم تكن ولا هى تستند الآن الى مثل هذه التأملات لاعتبار أساسى نستخلصه من التناقض الرئيسى فى المرحلة بيـن هـذه

الحركة والطبقات السائدة فى المجتمع . وهذا الوضع له مغزاه الكبير فى تقدير التطور الذى أصر عليه علال وتبنته حركته على امتداد فترة طويلة جدا .

أما الافتراض الثانى ، فهو أن معول علال الفاسى على الشباب لم يكن فى محله أيضا ، اذ سرعان ما ظهر ان الشباب المغربى (عمليا) يتجاوز منطلقات الفكر الاصلاحى بفعل من وضع الصراع الطبقى فى البلاد ، أى بفعل من احتداد التناقضات الاجتماعية وبروزها بشكل سافر وملح فى حركة تطوره (انتفاضة مارس 1965 .. الى آخره ..). ونحن نعتقد ولو فى مستوى آخر أن هذا ما سمح (لعبد الرحيم بوعبيد) بالقول : « ان العامل الفعال الذى أصبح يشكل احدى المعطيات الاساسية فى الوضع الخاص ، هو صعود أجيال من الشباب المتوالية التى التحقت بمن سبقوهم ، والذين أصبحوا يحسون بنفس المرارة المتغلغلة . فهم يؤاخذون بحق الجيل الذى شارك فى معركة الاستقلال وشاهد (ظروف السيطرة السياسية الاستعمارية فى البلاد) بكونه « أخطأ » هدف التحرير . ولكنهم مع ذلك يشعرون فى قرارة أنفسهم بأن عليهم أن يواصلوا الكفاح من اجل تحقيق نفس الغايات » (36) . لكن علال الفاسى كان قد سلم بأن « اهتمامنا الاول (لنفهم هذا التعبير جيدا : ت. ش) يجب ان يكون بتوجيه الشباب المثقف أو الذى يتثقف ، لنربى فى نفسه عادة النظر والبحث وقاعدة الدراسة العميقة والتفكير السليم .» (37). وهو محق فى تعلقه هذا بما ان كل شيء فى ذهنه كان يدور حول مفهوم البعث ، بعث البورجوازية الهجينة .

ان منظور علال الفاسى الى النخبة والشباب متماثل جزئيا . فهو حين ينيط بالنخبة مهام (خلق) التطور الاجتماعى اذا جاز لنا القول ، كان يراهن صعودا بهذا الرأى الى أبعد

مداه على الشباب فى تجسيد هذا التطور . والحركة فى عمقها تسير على راسها من الاعلى الى الادنى ، اى من رسم **الاطار الوصيفى نصريا الى جعله حركة فى الواقع عمليا** . وعلى ثمة مدا الهرم كان يقف علال كمفكر **حازم** يراقب الاتجاه العام ويأمر نيه بالتجدد **دوما** . وبما أن المسألة الآن، فى حركة الواقع الموضوعى خرجت عن هذا الطوق ، أى تمردت عليه بما افرزه الواقع من صور الاخذ والرد ، بما أفرزه نقول من صراعات حسمت فى معظم الاشكالات التى طرحها علال فى حينه (ونحن اذاك على عتبة الاستقلال المشروط)، فان منظور مفكرنا **قد أرتد الى ذاته،** وارتد اليه باكثر من حركة (**سلبية** جعلته **يتحنط** بدءا ، ثم جعلته يكشف عن دلالاته البورجوازية المتسرنة من الناحية الايديولوجية.

ان علال الفاسى ـــ ونذكر هذا حق علينا ـــ لم يكن يخجل من تقرير **ان** « للارستقراطية الفكرية طابعها الممتاز وهو اليقين والحرارة والبناء » (38). لكن ، وكما يبدو الآن ، **فان هذا الاستقراء البورجوازى لاخلاقية الارستقراطية لم يعد يقبل التفويت** . فهو وان كان على دلالة معينة فى مرحلته على النهوض الذى ارتضته البورجوازية المتوسطة للحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمغرب ، نراه الآن مرة أخرى ، يلوح بعيدا تحت اشكال اخرى من التطور قفزت عليه وكانت حاسمة ، دون أن يستطيع وهب حياتنا المعاصرة ادنى معنى يذكر . ان هذا هو جوهر المحافظة البورجوازية فى خط تقليدى تماما .(39). وبالطبع فلقد كانت الطبقة الحاكمة فى المغرب **اقدر** على استيعاب **التطور** الراسمالى وطرح أسبابه البورجوازية ، متغلبة على حجم هذه الصعوبة بجعل ارتباطها بالنظم الامبريالية أسلوبا لامحيد عنه من أجل الاستمرار . **وهنا فى راينا تنطرح المهمة الاولى وعلى نحو جديد لم يكن بامكان علال ان يفكر فيها . نقصد : انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية ، مادامت البورجوازية قد تخلت عنها**

اقتداء بمصالحها الفعلية . ذلك يعنى أن التوجه من الآن فصاعدا هو فى المقام الاول الى الطبقة العاملة المغربية وتنظيمها السياسى الطليعى .

لكن ما بدا لنا تماثلا جزئيا فى منظور علال نحو النخبة والشباب ، ويجب ان نقول هذا مره اخيره ، كان قد فرضه **النسق الفكرى السلالى** نفسه بتوجهاته **الاصيلة ، أى حين خضع فى التعامل النقدى مع البورجوازية لاوهام السلفية .**

من الطبيعى الان ، وهذا هو الافتراض الثالث ، ان يغيب منظور الجماهير عن تفكير علال ، اذ انه يتعارض بطابعه الراديكالى مع مقترحات البورجوازيه المتوسطه الراميه الى خلق حركه من البناء ، تكون هى ، وهى وحدها ، جنيه مردودها على طول الخط . وبما ان واقع الصراع قد زكى هذا نفسه بنفسه — ولا بد ان نلتفت هنا الى الصراعات الكبرى التى قادتها الجماهير المغربية ضد الاستغلال والقهر — فان هذا الغياب كان مقصودا به أطروحات علال الفاسى ، غياب **الجماهير عن ميدان الفعل الاجتماعى والسياسى .. الخ ..** ويحسن بنا أن نضيف هذا الاستخلاص الى ما حاولنا ان نعرض له من اخفاقات البورجوازية الوطنية فى توليد ما أسماه علال : « فكر الطبقة المتنورة » القادر وحده ، والكلام هنا له من جديد : على « النهوض بالامة وتحريرها » . فأى « تحرير » هذا الذى ينعته « حتى » منظروا البورجوازية الصغيرة فى بلادنا بـ « هاوية التخلف الاقتصادى والاجتماعى » (40) . لكن ما قصد به علال من تركيز على توليد « فكر الطبقة المتنورة » واعطائه مضمون ريادة ما فى ظل ظروف خصوصية ، تحديداً تلك التى ساهمت فى انضاجها عوامل متعددة ومتشابكة (شرحنا بعضها)، وهو بحد ذاته اسهام وجيه . **صدرت عنه فى الحقيقة مختلف التيارات**

السياسية والايديولوجية المعارضة له . فكأن علال الفاسى قد قصد باطلاق مبادرة النخبة وتمكينها من سلاحى **العقل والحرية** ، ولو على نحو ليبرالى ــ سلفى (ولابد من وعى التناقض الضمنى هنا) تعميق الخط الدستورى ــ الحقوقى للتجربة الديمقراطية المغربية المجهوضة . هذا خط عام بطبيعة الحال ، وسيظل مفعوله التراثى لذلك قويا مابقيت حياتنا على نحو ماهى عليه من تخلف وتبعية . لكن من حقنا أن نلاحظ أن الدعوة شىء ، وأدوات تشخيصها شىء ، وواقعها المرحلى شىء ، وأبعادها شىء آخر . وعلينا أن نرتب خطواتنا بشكل منهجى حتى نتمكن من وعى ابعاد الاشكالية المطروحة . نقول :

يقترن مفهوم النخبة فى فكر علال بالعقل .

ويقترن مفهوم الشباب فى فكره أيضا بالحرية .

وجهان بينهما تماثل جزئى كما قدمنا ، ولكنهما متناظران فى اسلوب العمل السياسى الايديولوجى . ولنا أن نتذكر ان السياق العام فى معرض (النقد الذاتى) هو فرش أرضية صالحة للبعث البورجوازى ضمن برنامج شامل للاصلاح ، يتعرض فى مختلف وجوه نشاطه الى قضايا الحياة المعاصرة ، بالذات الى القضايا الاساسية الفاعلة فيها والموجهة لها . فحين الاستعمار المباشر بالنسبة للبورجوازية الوطنية ــ علال ، هو حين مطاردة مخلفاته ، خصوصا ما كان فى مشاريعه هدف القضاء على « المقدسات » الاثيرة لديها : الوحدة والاستقلال والمصالح الخاصة والاسلام والتربية الدينية والقومية . ثم ان حين التخلف فى مفهوم البورجوازية هو حين تحرير المجتمع والفرد من نيره وطغيانه ... وهكذا تأتى البرجوازية على باقى الاشواط فى حركة تصاعدية لا تقيم الوزن فيها الا لشيئين معتبرين : العقل والحرية .

مفهومان مجردان فى بداية التحليل ، ولكن الرهان فى سياق الممارسة كان منصبا على مدخلين ضروريين لهما : النخبة والشباب . وبهما تستوى القاعدة المادية التى قدر علال الفاسى مبكرا أنها يجب أن تكون اختبارا « للنهوض بالامة » غداة الاستقلال والى الابد . لماذا كنا قد لاحظنا أن التنظير البورجوازى الصغير قد وجد ثغرة كبيرة فى هذا النسق ، نسق علال ، عندما نضح « هاوية التخلف .. الخ » فما ذلك الا لاعتبارات أخرى نراها فى الميدان السياسى والاقتصادى مرتبطة بالاختيارات النوعية للاوتوقراطية ــ الكومبرادور فى البلاد ، كما نراها فى جانب آخر لصيقة بخواص تكوين الفكر الاصلاحى نفسه . ومع ذلك ، فما لا يتعارض فيه الفكران عمليا وضمن الاختبار الواقعى الملموس هو : المدخل الى « التحرير » ؟

يعنينا قبل كل شىء أن نلتمس الجواب عند علال باعتبار « كتابه النقد الذاتى برنامج بناء مستقبل » كما أكد عبد الكريم غلاب (41) ، وهو كذلك فى خطوطه العريضة لاعتبارين :

أول : أن الكتاب **اعداد** تكوينى للنخبة **من** موقع **توجيهها** الى ما يخدم « تحرير » » الامة « كما أوضحنا من قبل . وهى التى (النخبة كما يؤكد علال مرارا) المدعوة **وحدها** ، ووحدها، بما أنها قادرة (أو يجب) على استيعاب شروط هذا التحرر، لنفرض هذا الاختيار ــ متى تشبعت بقيم محددة يختصرها الاهتمام بالعقل كموجه والتشبث بالحرية المطلقة فى نطاق الممارسة .

والثانى : أن الكتاب **توجيه** للشباب فى مرحلة تالية من من اعداد النخبة للدور المنوط بها . وما ذلك الا لكون علال قد لهم دور الشباب مكملا على نحو أو آخر لانجاز مرحلة لاغنى

فيها للنخبة من أن تبرز كقيادة واشراف . والتناغم الذى نود ابرازه لا يمكن ان يتماثل فى ذهن القارىء حقا الا اذا جرده من خصـــائصه **النظرية** مستعينا بتنـــاظره الواقعى **سياسيا** ، اى ضمن المهام المحددة المطلوب انجازها .

ان النخبة كما يؤكد علال لا تصلح الا بالعقل ، وصلاح عقلها هو اسلوبها المحدد فى تطبيق مشروع دولتها التعادلية . فلماذا العقل فى حد ذاته ؟؟ .

يقول علال : « لنثق فى العقل ، ولكن لنرفع من مستواه، ولنعلم الشعب كيف يفكر ، ولكن لنحذر طفيليات الافكار، لتكن حرية التفكير **جزءا** من عقيدتنا التى لا تقبل الدفع . أن ذلك خير وسيلة لتحرير مجتمعنا من ضروب الاستعباد الذى أودى به ، وخير وقـــاية **لنخبتنـــا** من كل دعـــوة **لا تحترم العقل ولا تدين بالتحـــريـــر** » (42) .

ولنلاحظ بتأمل معقول اذا أردنا ان نجيـــب ، خصـــائص مقدمات هذا النص ، وهى مقدمات وكفى ، لان علال الفاسى لا يبغى من ورائها سوى استشراف آفاق المستقبل . انه كعهده دائما **يستبق** التامل النظرى بما يجعل له ضوابط ملزمة فـــى التطبيق العملى . وهو يريـــد القول : **تمعنوا فى حديثى هذا ، انى احذركم من مغبة السقوط العشوائى ولما تم تفهموا دوركم التاريخى بعد** ! . فماذا يخفـــى عـــلال وراء الاستطـــرادات الجزئية ؟، ماذا يخفى بعبارة أخرى وراء بلاغة القول فى احترام العقل والايمـــان بالحـــريـــة ؟؟ .

اننا نرى لمزيد من **التحديد** ضرورة الوقوف على ما يلى :

ان النخبة المغربية مدعوة للثقة بالعقل بمبـــرر **جعله جزءا من العقيدة** . قد يبدو هذا القول غامضا لكن المعنى فيه يكفـــل

جميع الايضاحات . لنلاحظ أن الثقة بالعقل اذن ، لا تستلزم بالضرورة فى مفهوم علال الفاسى الايمان بالعقل الاوربى التنويرى فى القرن الثامن عشر الذى تمرد على التعاليم المسيحية وصفى ميدان عملها فى كل فروع النشاط الفكرى . وهو لا يعنى الايمان بأى عقل آخر سوى (وهنا تكمن العبرة والدلالة معا) **عقل الفكر الاسلامى** ، نعنى عقل الارستقراطية العربية الذى تكون فى مرحلة معينة من التاريخ العربى واندغم مع التفكير «اللاهوتى» يقدم هيئته على شكل **عقل مجرد** لا يلتزم الا بالاحكام القرآنية والقياسات السنية (من السنة) ، فهو على كل حال **عقل فلسفى** لا يتقيد بالاعتبارات العاطفية ولا بأى شىء آخر سوى ما يظهر له انه **يحرص على التطبيق انقويم للشرائع المنزلة** باعتبارها ارقى الاحكام العقلية فى مصير الانسان وحياته وشتى المناحى المرتبطة بوجوده . انه عقل ذاتى (43) يرتبط على نحو شديد بعامل **النص** القرآنى واحكام السنة ، وهو لذلك ليس عقلا مجردا ، **أى ليس عقلا يستند الى العقل** . حتى اذا ما تساءلنا لماذا يصر علال الفاسى على جعل صورة العقل بهذا الشكل (الممسوخ جزئيا)، ظهر لنا ان القضية فى التحليل الاخير تجيب على نوعين من التوجيه :

الاول يرتبط بالسلفية الجديدة على نحو ما قدمنا ، والعقل بالنسبة لها يخدم التعريف **بالدين الصحيح** ، الدين الاصفى والتبشير بالمقولات الديمقراطية فيه (دائما مع استحضار تحفظنا بصدد هذا الاطلاق) وذلك فى ارتباط مع ما تفرضه الحياة المعاصرة من **تجديد وبعث واستمرار** ، كما فى ارتباط مع ما يفرضه الواقع المغربى من تحرر ونهوض جوابا على الهيمنة الاستعمارية والتخلف الذاتى وقضايا اخرى شرحناها قبل (44) .

أما الثانى فهو جعل الحياة الفكرية خاضعة فى التحليل

الاخير لمقولات العقل البورجوازى بهذه الصورة ، ذلك أن التبشير بالعقل على نحو ما سبق ان المحنا ، هو وحده الذى يكفل كما يقول علال الفاسي نفسه تجاوز « طفيليات الافكـــار »، وعلـــى القارىء أن يفهم الآن ان « الطفيليات » المقصودة هى كل ما لا يصلح للعقل السلفى ــ البورجوازى او يرد عليه أو يتخطاه او.. بعبارة واحدة ، كل ما يتمرد على بنيته المعينة . وفى اعتبارى ان اهتمام النخبة بهذين الجانبين من الطموح العقلى المقترح هو الذى يضمن بالدرجة الاولى **تماسكها** ، حتى تضمن تبعا انجازها **لمهام علال** . (نقول مهام علال باعتبار ان كل شيء فى هذه الآونة اصبح تراثه لا غير ، اذ لا شيء يدفع الآن الى تطبيقه الفعلى) كما أن التفافها حول هذا المعنى بالذات هو ما سيجعل منها **حارسا** امينا على مكتسبات العقل السلفى ــ البورجوازى ، حتى تكون مقاومة ما دونه ، أمرا لا يحتاج الا الى نعته «بالفكر المستورد» أو تسفيهه على نحو ما يفترض اسلوب التشيع للفكر المثالى . (ومن الحق ان نذكر ان هذا التاويل لا يصيـــب الا الفكر الماركسى على وجه التخصيص !) **والحق كل ان علال اراد لها ان تكون صمام امن رادع لكل مـــا يخرج عن نطـــاقهـــا نظرا وممارسة .**

هكذا اذن تبدو لنا الثقة فى العقل مجرد حكم أولى يستتبع بالضرورة كما قال علال « الرفع من مستواه » وربطه مباشرة « بالعقيدة » حتى تكون الصيغة الاعم لهذه العملية جملة وتفصيلا قادرة على وعى ثم انجاز « تحرير المجتمع » من (الاستعباد) (= وهذا مصطلح علال نفسه) وبصورة أخص حماية « النخبة » نفسها من أى تمزق ان هى احتكمت الى غير العقل قاضيا والى غير الحرية مرشدا . والصورة فى التحليل الاخير **هـــى جعـــل النخبة بالعقل قيادة وجعل العقل بالنخبة ضمانة** . ذلك لهدف

اسمى من كل اعتبار ذاتي ، **جعله** علال الفاسى (بشموليتـــه دائما) ملحاحا وفوريا . يقول : « ان امامنا دعوات كثيـــرة وأفكارا متعددة ستنتشر فى اوساطنا بمختلف وسائل العصر الحديث ، وهى الاخرى مثل ما ورثناه فى وسطنا ، فيها الغث والسمين ، واذا **لم نفتح** عقولنا رترب عادة **التفكير الصحيح** فى نفوسنا فاننا لن نستطيع الاختيار من معارض تلك الافكار **ولا** الوقاية من كثير من انواع الهدم التى هى أسرع ما يكـــون للانتشار » (45) ولنا ان نقول أن هذا الهدف لم يكن دائما فى مستوى حسن نية قائله ، اذ كثيرا ما **زاغت** « النخبة » فرمت غير فكرها **بالهرطقة والتدجيل** . لعل علال الفاسى هو نفســه قد ساهم بدور كبير فى هذا المجال بالذات حين آعتبر كل فكر يعارض منطقه السلفى : « عهارة » (46). نريد القـــولَ ان النص اذا كان يتحلى بميزة **آلتقدير** الصحيح « لطفيليات **الافكار**» التى يمكن أن تجهز على مكتسبات حركة **طليعية ما** ، فانه لم يكن محصورا بهذا الهدف وحده ، بلَ تمدآه الى وجوب محاربة كل **فكر تقدمى باسم الاصالة وكل آتجاه راديكالى باسم المحافظة على التراث** . ولنا ان نتصفح كتاب (النقد الذاتى) اذا كنا نريـــد الوقوف على هذا المعنى نفسه . ومن المنطقى ان نؤكد ان علال الفاسى فى **حياته ظل على وفاء مطلق لمعاداته للفكر آلتقدمـــى عموما والفكر الماركسى على وجه آلخصوص** . هذا مثال فقط . الا يـــكون **آلنص** قد آحتمى **بالعموميات** ابان الاحتلال الاجنبـــى المباشر لبلادنا ، من اجل ان ينشىء **قاعدة** لمحاربة كل فكـــر يعارض تلكَ العموميات من منظور وطنى تقدمى فى عهد الاستقلال المشروط ؟؟ . نقول : من حقنا ان نشكَ اولا ، كما من حقنا ان نتهم ثانيا . وعبد الكريم غلاب يسعفنا بنص **مفيد** . يقولَ : « وقد اضفى علالَ على الاستقلالية كمذهب وعقيدة وممارســة سياسية هذا المبدأ (يقصد مبدأ العقيدة) فاصبحت آلاستقلالية

ايديولوجية متميزة لها طابعها المنفرد بين الايديولوجيات ، واظهر مظاهر هذا الطابع انها متفردة غير منقولة ولا اتباعية ولا تقليدية وانها من وحى هـذا الوطن (كذا : ت. ش.) ونابعـة من تفكير عرف بفكره الوطنى الاسلامى » (47). واذا تجاوزنـا الغمزات المفهومة فى هذا النص الحار ، امكننا ان نتحقق من صحة ما حاولنا ايضاحه أعلاه .

نلاحظ اذن ان الخط العام للدعوة العقلية يتجاوز اطـاره النظرى الحقيقى ، حتى يعنى مباشرة آفاق تطورنا التاريخـى برمته . والواقع ان ذلك كان بدافع من جعل ((النخبة)) اداة شرط جازمة تحكم على هذا التطور بما يصلح لتطورها ، اى بما يخدمها طبقيا . ونحب من جانبنا ان نربط من جديد بين هذه الملاحظة وما عرضنا له من مصالح البورجوازية المتوسطـة فى الوضع الراهن .

بقى هناك تناظر آخر يتعلق بالنخبة نفسهـا ، ولكنـه يتجاوزها احيانا موسعا من دائرته لصالح الشباب ، وهو مفهوم الحرية كما أوضحنا سابقا . لكن من المفيد ان نلاحظ قبل أن نعرض له بايجاز أن الحرية التى ظل علال مشدودا اليها (48) بكل وعيه الوطنى النفاذ ، لم تكن حرية **طبقة** بعينها بمفهوم ضيق من الناحية النظرية (= ايديولوجيا : حرية فعل البورجوازيـة المتوسطة ...) ولا هى حرية موصوفة ، اننا نظن أن علال قد اغرق المفهوم ذاته (لاعتبارات شتى) فى بحر من التجريد التأملى ارتبط لديه اولا واخيرا بمصادر ثقافته الدينية وتطلعه الروحى (المثالى بالطبع) وجماع سهومـه الفلسفـى ، حتـى اعتبرها « حرية الحرية ، تلك الحرية التى لا قيود لها والتى ليست حرة فقط فى ان تكون والا تكون ، ولكنها واجبة ان تكون لان وجوبها من نفسها » (49). ومع هذا الاعتراف ، فقد اراد

علال الفاسى ان يفتح أفقا واسعا من التأمل حول معناها وضرورتها وشروط توفرها. وربما الاعتبارات كهذه بما هى عليه من **عمومية وفوقية** ، ما ظلت (نقصد الحرية دائما) طى التجريد النظرى دون أن ينفتح أمامها سبيل التطبيق العملى . وجدير بالملاحظة ان دعوة كهذه حصلت فى الفكر الاوربى البورجوازى فى ارتباط وثيق مع الاهتمام باعطاء المبادرة الفردية شرعية مفهومة لتزكية صراعها ضد الاقطاع والسيطرة الكنسية ، وكل ما حصدته البورجوازية الاوروبية من تدويلها لمصادر حريتها بهذا الشكل ، عاد بأهميته الاكيدة على مشروعات توسعها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، بحيث تجاوزت به حدود ونطاق ترابها ، موجهة انظار العالم الى مفعول ثراتها الحضارى ودورها التبشيرى القائد . ومن حسن الحظ (أو من سوئه) أن بورجوازيتنا الوطنية لم تتشبه الا على نطاق ضيق بمفهوم « تجديدى وهدام » كهذا (50) وحسبها أن **تبعيتها** تحول بينها وبين استقلالها بهذا القدر أو ذاك على نحو يكفل لها القيام بذلك . ومع هذا الاعتبار ، فقد **كان علال الفاسى حريصا على تطوير مفهوم بورجوازى فى العمق** ، مع خصوصية أصله « الدينى » تتويجا منه لدور « النخبة » وقد عبد لها سبل النهوض على هدى من آرائه الوطنية . لكننا لا نستطيع أن نقبل ما قامت به البورجوازية الوطنية المغربية على انه تطبيق **فعلى** لمفهوم علال فى الحرية ، وهذه مسألة واضحة من انجازات البورجوازية ذاتها . لكن يكفينا أن نقول : **انها ظلت تتطلع الى تكييف دينى لها مع اهتمامها الملموس بايجاد القاعدة المادية لتطورها فى استقلال عن ظروفها الخاصة بالمغرب** . ونحن نذكر هذا وفى رأينا أن دور الاوتوقراطية ــ الكومبرادور قد أجهض كل مبادراتها فى هذا الاتجاه تحت مفعول التطور الراسمالى التبعى الذى امتص بالغ تفردها على نحو ما أرادت من الاستقلال

والتوسع وحتى السلطة .

وبغض النظر عن هذه الاعتراضات ، فان مفهوم الحرية ظل يلح على علال حتى جعله ركنا **عقيديا ثابتا** فى فكره وآرائه ، ومن ثم حق أن يوصف علال **بمفكر الحرية** ، كما حق أن يوصف بمفكر الحرية البورجوازية . فهل نخطىء عندما نتولى اتهام هذا المفهوم بالتجريد والفوقية ؟؟ .

ان المسألة فى رايى لا تتعدى الجواب عن : لماذا أصر علال على تقييد النخبة بالعقل والشباب بالحرية ؟ . لماذا فعلا كان هذا الطريق وليس غيره ما فرض على الفكر البورجوازى الوطنى مأزق التوفيق بين خصائصه المحلية ودعاويه النظرية ؟؟ ولماذا أخيرا ظل مفهوم الحرية بالذات مطلقا كما أنزل بقدرة علال علا التبحر المثالى ؟؟ .

ان الاجوبة فى معرض بحثنا واضحة .

1 ــ يشكل الشباب طليعة بمفهوم . والمفهوم الذى كان حاضرا فى ذهن علال هو طليعيته ــ على المستوى الفكرى والاجتماعى ، ولعل هذا أحد العوامل التى شجعت علال على ربط مصير فكره وبرنامج آرائه بمصير الشباب أنفسهم . فهم بعبارة دقيقة أدوات عمل مرحلى متى تم استيعابهم لغرض التوجيه السياسى ــ الاخلاقى ــ الايديولوجى ، كانوا أقدر على ضبط سير المجتمع والتأثير فيه . وبما أن المسألة على هذا النحو ، فمن الصواب أن نذكر أن مصدر هذا الاهتمام فى فكر علال ارتكز الى مفهوم **عددى** بين الشباب أيضا ، نعنى الى نسبة الشباب فى المجتمع المغربى بين مجموع فئات وأعمار سكانه . هذا واقع ، ولقد كان كذلك عندما باشر علال أولى خطواته فى اقتراح مشروع الدولة التعادلية بكل تفاصيلها الممكنة .

2 — ان دعوة الشباب لن تقوم بكامل ما يرجى منها الا اذا احتكمت الى ما يؤرق الشباب : الحرية ، فهى حرية مطلقة بمفهوم بورجوازى صرف ، **ولكنها من الناحية العملية حرية ادماج الشباب فى مشروع البورجوازية من أجل « تحرير الامة والنهوض بها »** .

3 — **وجعل** الشباب يقبل بحرية موصوفة ، هدده ، **بمعنى بكل تأكيد جعله يفهم ضمنا المرمى الدينى وراءها حتى يظل متطلعا الى ما يتجاوز به همومه المادية وواقع حياته** ومعاشه . وهاهنا يخدم التجريد مرة أخرى **غرضا** مزدوجا لاتخفى نتائجه المأمولة . ولكنه يصادق على كل حال على عجز ملحوظ فى تجاوز الاشكالية العصيبة : ما الحرية المفرغة من محتوى الضرورة ؟ وايضا : ما دور الحرية ، اية حرية ، بازاء واقع الصراع الطبقى ؟ . وبعبارة ، لقد اراد علال ان يقفز عن مضمون هذا الصراع بتوجيه الشباب والنخبة الى أرحب افق ممكن قصدا . ولم يكن هذا الافق الا تسجيل المبادرة فى قائمة الريادة الوطنية .

يجب ان نفهم هذا ضمن المرحلة نفسها . لقد كان فكر علال يقترح مخارج الازمة محكوما بعاملين اثنين : الاول — واقع الاستعمار الفرنسى المباشر وضغوطه العملية (القمع والارهاب ...). والثانى — واقع المغرب بالذات من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ... الخ .. وبه (أى المغرب) حركة جماهيرية اسمى ما تتطلع اليه هو الاستقلال والديمقراطية والحرية . ولذلك كانت اقرب الحلول عملية اليه (علال) هى الاستفادة من تناقضات الوضع السائد وتوجيهها على قاعدة من البحث الوطنى الى ما يحقق به ريادة فعلية ، ذلك بوضع النخبة امام حقيقة المشكل فى أبعاده البورجوازية تاريخيا ، ووضع

الشباب امام نوعية هذا المشكل بالذات ايديولوجيا ، لوعيه من جهة والاضطلاع بأعبائه من جهة أخرى . لقد وضع علال الناس بيد فئتين يختلف تركيبهما الاجتماعى والسيكولوجــى وحتــى الطبقى . سلاحين كان يتوجب ان يفيــد مضاؤهما فى اخــراج البلاد من حاضرها الاستعمارى الى مستقبلها الاستقلالــى ، بمعنى أن تهتدى الي هذا المستقبل من خلال استيعابها لماضيها المشرق . لقد وضع علال الفاسى بيد هذين الفئتين بعبارة أخرى اسلوب عمل وبرنامج ورؤية ، فضلا من انه كان وطنيا ذا شأن فى ترقيم اولوية كل ذلك او بضعة على ما سواه .

يمكن أن يكون هذا باختصار مقصود هو الاطار العام الذى تصوره علال للخروج من الاوضاع المتردية العامة . ولذلــك سنعمل على استحضار خصائص الاطار فى علاقة مع الاطروحات التى حاولنا الدفاع عنها على امتداد معالجتنا لقراءة علال — ويمكن ان نقترح الخطوات التالية لذلك :

الف — يرد الالحاح عند علال على دور النخبة مــن مراجعته للاوضاع « المغربيه » ابان فترة الاحتلال الاستعمارى، بما الحقه هذا من مضار اجتماعيه وفكرية على واقع « الامه » . وهذا نفسه فى ترابط شديد مع برنامج بناء المستقبل على خطى حثيثة من التصور البورجوازى . وقد راينا أن احدى خــواص السلفية هو التأمل فى المستقبل من خلال وعى الماضى على نحو عقلى ، بعبارة محددة على نحو اصطفائــى . وهــذا بدوره يقودنا الى اعتبار أن السلفية بتركيزها على الدعوة العقلانية ، انما كانت ترمى الى بعث انتقائى ، يختبر الماضى كما يختبــر الحــاضــر ، يختبــر مــذاهــب الفكــر الاوربــى كمــا يختبــر مــذاهــب الفكــر الاســلامــى ، يختبــر الواقــع كما يختبر المثــال ، وكــل ذلــك لغرض التطبيق . ولقد سار

هذا التطبيق ضمن البرنامج المقترح بواسطة هيئة حزبية عتيدة ومعروفة فى المغرب (حزب الاستقلال) فى سبيلين : **أولهما يمتح من الليبرالية (على نحو مشوش) نزعتها الاقتصادية القائمة على تمجيد روح المبادرة الفردية . وقد افضى هذا الى تبنى شكل الدولة الراسمالية القادرة على وضع التعادلية فى خدمة جميع الطبقات . واما الثانى ، فيستمد من الفكر الاسلامى قدسية اصول الديمقراطية الاجتماعية (مع التجاوز) جاعلا منها من الناحية الايديولوجية عقيدة مذهبية تحترم العقل وتقدس الحرية المطلقة. ولقد افضى هذا الطريق بالذات الى الاعلاء من شأن النزعة الانتقائية الاختبارية ، بما فيها من الحاح على دور الوضعية فى تحقيق توازن « الامة » المعقول** . ولاشك ، فان تجليات هذه النزعة هى ما الح عليه علال دائما من « احترامه » للوضع الطبقى فى المغرب ، وجعل هذا « الاحترام » فى خدمة التخفيف من حدة التناقضات الاجتماعية او تذويبها ان أمكن . وسبق ان اكدنا ان اول ما فرض هذا الطريق باختيار الاطراف التى ساهمت فى تعميقه من الناحية النظرية ، هو **السكوت عن الاستغلال المادى للجماهير أو تبريره دينيا ، والوقوف فى وجه الحركة الديمقراطية المغربية أو تمويه شعاراتها باسلوب رجعى ماكر .**

ب - كذلك كان الالحاح على دور الحرية وجعله مقياسا لحث الشباب على النهوض بأعباء التحرر الوطنى ، يرتبط فى مقدماته العمومية ، بفكرة سبق ان اشرنا اليها ، نقصد **الطابع المثالى** الذى تلبست به . **فهى بالدرجة الاولى حرية مطلقة ، وهى بالدرجة الاولى لا حرية** . وهى بالدرجة الثانية البورجوازية فى توسيع مدارها على جميع المستويات ، وهى بالدرجة الثانية أيضا طموحا لم تستطع البورجوازية الوطنية التعلق به دائما بفعل من طبيعة الصراعات السياسية التى

وجدت نفسها فيها ، وهى لا تحتكم الا لغير مصالحها العليا : النفوذ الاجتماعى والسلطة السياسية .

جيم — كل هذا يتوافق بصورة مؤكدة مع المفهوم الدينى الذى جعل من كل ما اسلفنا بحثه : مهمات مرحليه او استراتيجية ، تفتقت ذهنية البورجوازية الوطنية عن اقتراح اساليب انجازها فى ترابط مع الاوضاع الاجتماعيه والاقتصاديه والسياسية التى تدعو اليها . لنا أن نقول : **ان البورجوازية المتوسطة ارادت ان تجدد فى الدين بما يجعل الدين حكما مطلقا. فكان الحرية بهذا المعنى لا تعنى آلا حرية النخبة فى التوجيه واقرار مشاريع التقدم ، وكان العقلانية بهذا المفهوم نفسه لاتعنى الا سلطة العقل البورجوازى على التاريخ المغربى . وبين البداية والنهاية تصبح السلفية نصوصا ملزمة على المستوى الايديولوجى كما يصبح التنظير لطريق النمو الراسمالى خطا لا يتعرج بالضرورة الا اذا كانت سلطة الصراع اقوى منه .**

لكن ، كيف نستطيع أن نرى ضمن هذه المشاهد قدرة علال الفاسى على التوقع ؟؟

نعنى بالتوقع اولا واخيرا ، التطلع الشديد الى حسم مختلف قضايا « الامة » بما يعود عليها بالنهوض الوطنى فى جميع الميادين . ولذلك فنحن نستطيع أن نراه فى ناحية واحدة فقط ، الناحية التي جسدها علال ، نعى الناحية التى عندما وقف علال على معالمها ، وجدها لا تتوافق ، لا فى التفاصيل ولا فى اى شىء ، مع ما كان رائده وملهمه فى البحث : العقل والحرية من جديد . لقد عصفت الاتوقراطية — الكومبرادور بجميع الاختيارات الوطنية ، وهى **ازمة** حدت بعلال الى القول شعرا :

* ومن بعد خمس وعشرين عاما
ومن بعد فوز ونصـــر مبيـــن
ومن بعـــد رفعة شعب نبيل
نرد الـــى اسفـــل السافليـــن .
نعم . قد جلا عنـــا الاجانب **صورة**
ولكنهم فى ارضنا **يتحكمـــون**
بلـــى أنهـــم فى قلبنـــا
ولا سيمـــا فى عقالنـــا
رواسب الاستعمـــار فى كل جهـــة
وهيمنة المال اشـــد واخطـــر
نبذنـــا لســـــان الضـــــاد
رفضنـــا عـــرى الاســـــلام
وعدنـــا كما شاء المعمر نسخة له
تحكم فى أموالنا ورجالنا ، وان لم يبن منه سوى الظل
شريط من الاهــــوال
وقطعـــة من الادمـــى الممسوخ لم ادر من أيـــن تطلع
شقينـــا بهـــا؟
ففلاحنـــا لم يستفـــد منَ تـــراثه
ومن ارضه الا تبدلَ سيـــد

وعاملنــا فى محنــة كــل كــده

بميــزان الاستعمــار او خلفــائــه

وما الامــر الا مــا تريــد عصــابــة
ذلـك الاستقــلال ام هى حــالة من الزيف ؟ » (51)

وليس عليهــا اذ تريــد رقيــب

لذا نراه كان على خطا مبين حينما برر الازمة بالشروط التى تضعها السلفية للتطور . كما نراه على خطا حينما اقــر بضرورة الحرية المطلقة ، فكان ان هددت هذه الحرية المطلقــة (ويجب أن نقول : فى الاستغلال على نحو ما تبيح الطبقــات السائدة لنفسها من العمل فى هذا الاتجاه ..) **مقومات الفكــر الوطنى برمته** ، فانعكست آثارها السيئة على واقــع حياتنــا وتطورنا .

هنا يأتى دور علال على وجه التحديد ، **وكانه كان يبشر بهذه المعانى من حيث اراد تجاوزها** . تلك مفارقة ضخمة يجب أن نعتبرهــا من الآن **احــدى الخصــائص التكوينيــة لذاتيــة البورجوازية المتوسطة الذيلية المغربية** . هذه نقطــة البداية فى **الدرس** ، وربما يمكن ان يكون هذا مبررا كافيا للرجوع الــى الوراء قليلا لتحديد التاريخ الفعلى لما أسماه رائد البورحوازية الوطنية بــ (النقــد الذاتــى) .

(يــتــبــع)

هوامش

(*) — هذا البحث فصل من كتاب بنفس العنوان .

1 — أنظر : منهج الفكر المغربي المعاصر . الثقافة الجديدة (مجلة) العدد الاول 1974 . وأيضا . العرب والفكر التاريخي — دار الحقيقة . بحيث أصبحت هذه المقالة في غير طبعة رسمية للدار (ربما)

2 — للوقوف على ذلك أنظر : مقاصد الشريعة ... ونذكر على سبيل المثال ان علال الفاسي انتقد بعض مواقف المذهب المالكي فيما يخص المرأة في كتابه (النقد الذاتي) . وقد وقفنا على ثماني انتقادات تبدو لنا مهمة على سبيل مقارنتها مع التزمت الصارم الذي شرعه (المذهب) في هذا المجال .

3 — النسخة المعتمدة في دراستنا من منشورات لجنة نشر تراث علال الفاسي مطبعة الدار البيضاء 1974 . وقد طبع الكتاب لاول مرة في القاهرة سنة 1952 ، وسبق للمؤلف أن نشر بعض فصوله في المغرب إبتداء من سنة 1948 .

4 — قال علال الفاسي ذات يوم (وكان يخطب في مدينة العرائش بمناسبة ذكرى معركة وادي المخازن) أن حزب الاستقلال يشبه **المحطة** الى حد بعيد، فعندها أو عنده تلتقي جميع الاتجاهات ، وذلك عمل الحزب في ميادين الحياة اقتصاديا واجتماعيا ... أليس من المفارقة بعض الشيء أن يكون شبه الحزب بالمحطة هو تاريخه وتاريخ علال في تاريخ الصراع الطبقي بالمغرب ؟؟

(*) — التأكيد البارز بالاسود على امتداد النص من اقتراحنا : م. ش

5 — يوجد النص على ظهر غلاف(النقد الذاتي)الطبعة المذكورة آنفا. وللمقارنة راجع : ملامح شخصية علال/عبدالكريم غلاب . مطبعة الرسالة 1974 ص 200 وما بعدها .

6 — قارن هذا مع : دور الفرد في التاريخ (بليخانوف / ت : احسان سركيس ، دار دمشق 1974 ص 75 . وفيه يوجه نقدا لاذعا للدائيين ونظرية العوامل .

7) Voir : PLANIFICATION ET CROISSANCE ACCELEREE - p. coll. p. 42 et suivantes.

8 — نستثني من هذا الحديث المقاومة المسلحة في الريف بقيادة عبد الكريم.

ويهمنا أن نشير الى التأييد الجزئي الذي حظيت به هذه المقاومة قبل البداية الفعلية لحركة البورجوازية المغربية سياسيا . ولعلها المقاومة الوحيدة (على حد علمنا) التي استقطبت اهتمامات المثقفين المغربيين في المغرب في حينه . ويذكر علال الفاسي (الحركات الاستقلالية — ص 128 وما بعدها) أن السلطات الاستعمارية اكتشفت عام 1924 بالبيضاء مركز دعاية مهم لعبد الكريم . وقبض على اشخاص كثيرين وصودرت كميات من المنشورات تحرض على الثورة . كما قام العمال المغاربة بفرنسا بعدة مظاهرات تضامنية وعقدوا مؤتمرا عاما (بجون فيلييه) عام 1925 وجهوا منه للزعيم تحيتهم معلنين تآزرهم . وفي ميدان مساندة أدباء المغرب يذكر علال اشعار محمد بن الاعرج السليماني من قوله : دع الفتيات تمرح في القصور — ويمم مسمفا وادي النكور (نشرت في تونس). وقصيدة الحاج محمد الناصري ... الى غير ذلك من ألوان الدعم . وجدير بالذكر أن أصداء هذه الحركة ترددت صداها في الشرق في شعر الرصافي وعلي محمود طه خصوصا عندما انتهت باخماد الثورة واقتياد عبد الكريم الى المنفى .

9 — مصدر مذكور (ملامح من شخصية علال) — المقدمة .

10 — المرجــع الســابــق ص 13

11 — أنظر : العودة الى الشريعة . آفاق عربية (مجلة) فبراير 1977 . عـــ 6 السنة 2 ص 56 وما بعدهــا .

12 — ويقول في مكان آخر (ص 41) « وهذا الاتصال (يعني مع شعيب) **كان له أثره في بلورة الحركة الوطنية الى حركــة سياسية وطنيــة** » أنظر : تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ، الجزء الاول — ابريل 1976 — البيضاء . وللمقارنة مع هذا أنظر أيضا : الفكر العربي في عصر النهضة (1768 — 1939) — البرت حوراني — ت : كريم عزقول — دار النهار 1968 بيــروت . يقول : « وكانت له (يقصد شعيب) صلات ودية وثيقة مع حركات سياسية في شمال أفريقيا كرابطة العلماء الجزائريين ونجمة شمال أفريقيا والدستور في تونس، والجماعات القومية الاولى في مراكش (يقصد المغرب) ... » ص 365 ومابعدها . وانظر أيضا :

-- HISTOIRE DU MAROC - Jean Brignor, et autres - Ed. Hatier 1960 p. 391.

13 — الاسلام والراسمالية ، ت : نزيه الحكيم . دار الطليعة بيــروت . الطبعة الثانية ص 77 وما بعدها ، ومن المفيد أن نشيــر الى أن (رودينسون) في معالجة هذه القضية ينطلق من سؤال محدد : هل كان الاقتصاد الاسلامي في العصر الوسيط اقتصادا «عادلا» ؟ مجيبا

بقوله «ان اكثر انصار تاريخ الاسلامي حماسة يجدون عناء فى اثبات ذلك (وأن زعمه بعض السذج والجاهلين وبعض السياسيين الانتهازيين، ولم تجرؤ الا قلة على تكذيب الخرافات الشائعة بشأنه بين الجماهير) لانهم يرون فى هذا الاقتصاد تشويها مؤسفا للمثل الاعلى القرآني ..» . وهو لذلك يخلص الى ضرورة تحديد هذه الفترة فى مدى 12 سنة (أبوبكر ـ عمر) مشيرا بدوره الى أن **الشيعة** يحصرونها فى 5 سنوات (**حكم علي**)، ولعل مذهب السنة هو الذى يوسع الاطار على علاته ليستخلص ضرورة العودة من منطلقات اشمل ، قيمتها **الاصلية** انها تبحث عن تطبيق خالص لقيم الفكر الدينى فى مجتمع يشهد تحولات بنيوية عميقة .

14 ــ المرجع المذكور سابقا ص 49 .

15 ــ الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ، نشر وتوزيع عبد السلام جسوس 1948 طنجة ص 135 .

16 ــ المرجع السابق ص 134 .

17 ــ وقد خلد علال الفاسى هذه **العودة الطوباوية** شعرا فى قصيدة له عن ذكرى مرور ربعة عشر قرنا على نزول القرآن يقول :

« يا أمة قرآنها دستورها وزعيمها كان النبى المرسل .
عودى الى الدين الحنيف عقيدة وشريعة وتخلقا وتعقلا
ما فى سوى القرآن خير يحتبى أوفى سوى الاسلام نهج يبتلى .»

الى ان يقول فى لهجة مثيرة :

« ايه **بغاة** العرب يا من زودوا باسم التقدم شهوة وتعبلا
عودوا الى الاسلام يصلح شأنكم وينيلكم نصرا مبينا فى الملا» ،

انظر : المختار من شعر علال . الطبعة الاولى ماى 1976 . الدار البيضاء .

18 ــ الحركات الاستقلالية (مصدر . م.) ص 134 .

19 ــ انظر لمزيد من التوسع : الايديولوجيه العربية المعاصرة . الطبعة العربية ت. محمد عيتانى ، دار الحقيقة . وانظر : المراجعة الجادة التى أحدثها العروى لكتابه هذا فى (العرب والفكر التاريخي ــ القسم الاول) **وجدير بالملاحظة أن عبد الله العروى ، انتقل فى المدة الاخيرة الى مواقع تبريرية شاذة نسبيا بالنسبة لمنطلقات فكره السابقة . ولعله الان يكرر**

نفسه بما أوتي من صبر على الدعوة « الليبرالية » الاسبغة . لكن ، وبالحق ، من موقع معاداته الذاتية « للفكر العربي اليساري » الذي قال عنه : « يحافظ على وجوده فقط في الشعر اللعني وفي الاخصوصة المتبائسة ». وتلقى أن العروى يغامر « بهيجليته الجديـدة » نقضا لموضوعته « الماركسية التاريخية » . الا تكون هذه ضريبة الانتقائية ؟

انظر : المحرر الثقافي . ابريل 1977 ، ص 5

20 — او كما قال محمد المبارك : « الجاهلية المسلحة والوثنية المجملة بزينة الفن والعلم » ، انظر : الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية . ص 48 ، منشورات دار الفكر بيروت 1968 .

21) Voir : LE DEVELOPPEMENT DU CA-PITALISME SOUS LE PROTECTORAT DANS LE HAOUZ DE MARRAKECH. PASCON. BESM. (Revue) N° Double 132 - 133 - Nov. 1976.

22 — الحركات الاستقلالية (م. م) ص 128 وما بعدها

23) Voir : IMPOSSIBLE DE SORTIR DU SOUS DEVELOPPEMENT GENERAL SANS REFORME AGRAIRE- Ed. (الكفاح الوطني)
Ali YATA - In : LA QUESTION AGRAIRE AU MAROC - BESM 1974.

24 — الحركات الاستقلالية (م. م) ص 135

25 — انظر : تاريخ الحركة . و. بالمغرب . مصدر مذكور ص 34 ومابعدها .

26 — عندما أراد (فتح الله ولعلو) أن يدرس الفكر الاجتماعي — الاقتصادي عن (المقريزي) أحس بنوع من الاحراج ، الامر الـذي دفع به في معرض تقرير سبق المقريزي لغيره من الاوربيين في طرح قضايا ذات طبيعة اقتصادية ، ان يوضح أهداف دراسته مشيرا الى ان «الدافع الذي يوجه هذه المحاولة لا يرتبط ابدا بأسباب نفسية او اصـرار اكاديمي ، ولا بالتحديات » السلفية » كما انه ايضا لا يكشف عن عقدة التخلف » . مضيفا في الهامش قوله : « اننا نعرف أن السلفيين في العالم العربي شرقا وغربا قد أعدوا حركة سياسية ثقافية هيأت ولادة حركة وطنية رفضت اسهام الاوربي الاستعماري دائمة بالرأي العام الى « العودة » الى الماضي المشرق للعالم العربي والاسلام ، وهنا ما يظهر انا الطريقة الاولى لتأكيد الشخصية الخاصة للمستعمر، وتهيىء المقاومة ضد الاستعمار .. »

Voir : LA PENSEE SOCIO-ECONOMIQUE D'EL MAKRIZI- Publ. BESM. N° 130 1976, p. 5.

وانظر ايضا : وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ / عباس الجيراري . دار الثقافة 1976 ص 30 وما بعدها . بحيث يطرح الدكتور : مدى استفادتنا من تحليل ظاهرة الوحدة المذهبية واسبابها في مواجهة الواقع . والجواب برايه يتحدد فيما يلي : 1) « اننا في المعركه التي

أجمع شعبنا الباسل على خوضها ... من أجل استرداد الصحراء ..» وساهرة الوحدة هنا لهامناها استصالي.٢) ان الوحدة المذهبية التي يعيش المغرب في ظلها منذ قرون ... لم تفرض نفسها بالقوة ». (3) مستخلصا في النهاية مظهرين : الاول = الميل الفطري الى الوحدة . والثاني : الميل الى البساطة والسهولة والوضوح .. ! وبيت القصيد في تحليل الدكتور هو الخلاصة الاتية : « نحن في أمس الحاجة الى استحضار هذين المظهرين في هذه المرحلة التي نعاني فيها من نزاع حضاري .. ونحن في خضم صراعه واقفون في مفترق الطرق .. » مضيفا « اننا نعاني من تشتت فكري واضطراب ثقافي وقلق حضاري .. وهي ظواهر مرضيه تهدد بتمزق الانسان .. ولن يخرجنا مما نحن فيه الا البحث عن خط موحد للسير يتكامل فيه عمل القيادة والنخبة والجماهير » (ص 39). هذا هو المعنى المفضوح لهذه الفذلكة التبشيرية . ومن حقنابما أن الظواهر التي تعرض لها الدكتور « تهدد بتمزق الانسان » أن نتساءل : لصالح من ؟ . حقا انه بعد 28 سنة من عمر دعوة (علال الفاسي) بنفس الطريقة ، استطاع الفكر السلفي أن يكون لنفسه دعاته الفعليين ـ المغيبيين ـ الذيليين ـ الرجعيين ، في زمن نضال الشعوب من أجل الاشتراكية والحرية . فأين الخطأ ؟؟ نظن ، في « لاهوت » الفكر البورجوازي الهجين فمن يقدر قدر هذه المفارقة بين الامس واليوم ؟؟ وأين حساب التاريخ ؟؟ . لكن : وداعا يا أعشاش لنخبة المغربية .

27 ـ قارن مع : ماهي التنمية . ت : سعيد أبو الحسن ـ دار الحقيقة . ص 61 وما بعدها .

28 ـ لقد كانت الصيغة الاعم لهذه الاشكالية يوم انطرحت على جمال الدين الافغاني ومحمد عبده (بالخصوص) محددة بالسؤال التالي : أولا : كيف السبيل الى حمل البلدان الاسلامية قوية وناجحة ؟ (والمحور في هذا السؤال هو الموقف من الغرب) . وثانيا : كيف يمكن اقناع المسلمين بأن عليهم أن يفهموا دينهم الفهم الصحيح وأن يعيشوا وفقا لتعاليمه ؟ (والمحور في هذا السؤال هو واقع العالم الاسلامي وظروفه الخاصة) . ان الاتجاه العام هو تجاوز « الانحطاط الداخلي » « بالبعث الذاتي » وعلال الفاسي يكرر الصيغة هنا على منوال استاذه شكيب (كيف تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟) . ومعلوم كما أكد (ألبرت حوراني) (المرجع المذكور ص 179) : « لقد نوى محمد عبده اقامة جدار ضد العلمانية . فاذا به في الحقيقة يبني جسرا تعبر العلمانية عليه فتحتل المواقع واحدا بعد الاخر .. »

29 ـ لقد تخلت كطبقة صاعدة عن اهتمامها بباقي مصالح الطبقات الاخرى ، ويعني ذلك ضمنيا أنها انتقلت من النضال الى المواجهة في حركة

ارتدادية . وبقدر ما تربت على حماية مصالحها ، بقدر ما تربت ايضا على الدفاع عنها في وجه التحولات الاجتماعية التاعدية . ان المحافظة في الميدان الاجتماعي هي تعبير رمزي مقنع بمصلحة سياسية واقتصادية في الوضع الراهن .

30 — الفكر العربي في عصر النهضة (مصدر مذكور) ص 443 وما بعدها .

31 — ان كون علال الفاسي كان يشرف على تحرير الصفحة الثالثة في جريدة (العلم) الخاصة بشؤون العالم الاسلامي نهو من المعاني الدالة كثيرا في هذا السياق .

32 — في الحقيقة أن (شارل بتلهايم) يقترح هذه الموضوعة في معرض نقده الشديد لمفهوم التخلف . انظر :

— PLANIFICATION ET CROISSANCE ACCELEREE. op. cit. p. 26 et suivantes.

33 — يقول علال الفاسي : « واذا قدر للنخبة المغربية ان تجتمع يوما ما لتضع برنامجا مفصلا لكل فروع الحياة ومظاهر النشاط القومي في المغرب ، ووجدت في هذا الكتاب (يقصد النقد الذاتي) ما يدلها على سبيل تحقيق غايتها، فسيكون ذلك خير جزاء على الجهد الذي بذلته » . انظر النقد الذاتي (مصدر . م) ص 8 .

34 — المرجع المذكور (النقد الذاتي) ص 2.

35 — انظر : مستقبل شبيبتنا في افق الثمانينات . محمد الحبابي . ت : محمد برادة ، دار النشر 1971 ص 26 وما بعدها .

36 — المرجع المذكور (مستقبل ...) ص 15 (المقدمة)

37 — المرجع السابق (النقد الذاتي). ص 43 .

38 — النقد الذاتي (مصدر . م.) ص 44 —

39 — قارن هذا مع

— FONDS ET ASPECTS DE LA LUTTE ARABE - M. Djoundi p. 89 et suivantes . Voir : In RENAISSANCE DU MONDE ARABE (Colloque intérarabe de Louvain) Ed. Duculot 1972.

40 — يحدد الدكتور الحبابي السياسة الاقتصادية والاجتماعية منذ 1960 بما يلي : 1) — انخفاض مستوى المعيشة لجماهير السكان وارتفاع مستوى الاستهلاك عند بعض مئات الالاف من السكان . 2) — هذه الوضعية ناجمة عن السياسة المتبعة والاختيارات المرسومة منذ 1960 . 3) — ارتفاع الاسعار . 4) — تجميد الاجور . 5) — تفقير الشعب (تدهور القدرة الشرائية) . ويقول الحبابي بهذا الصدد : « ان الشعب المغربي لاول مرة يعرف ليس فقط انخفاضا في شراء البضائع ومنتوجات الاستهلاك ، بل يضطر كذلك رغم النمو الديمغرافي

الى تخفيض استهلاكه للمواد الاساسية وخصوصا الحبوب والسكر .»
أنظر مستقبل شبيبتنا (مصدر مذكور) ص 35 وما بعدها . وانظر ايضا :

— BILAN DE L'ECONOMIE MAROCAINE DEPUIS L'INDEPENDANCE. A. Agourram et A. Betal BESM N° 116 p. 27.

يقولان : « ان التحولات الاكثر بروزا التي طبعت نمو الاقتصاد والمجتمع المغربيين لا تكشف عن تحول حاسم لبنية الاقتصاد وعلاقاتها مع الخارج، بل فقط عن ظاهرة « انتقال » جزء من الدخل الوطني والرأسمال ، كان من قبل بيد الاجانب ، الى الوطنيين بفضل « مغربة » الادارة وجزء من الاقتصاد . ان التفاوت الاجتماعي اصبح حادا اكثر ، مع ان الفئات البورجوازية الجديدة لا تملك سوى ميل ضعيف جدا نحو الاستثمار الانتاجي » وانظر كتكملة لهذا الاستنتاج الاخير :

— LES PERSPECTIVES DE L'ASSOCIATION MAGHREB - C.E.E. DANS LE DEVELOPPEMENT ECONOMIQUE DU MAROC - A. Betal - BESM. (Revue) op. cit. p. 68 et suivantes N° Double.

بحيث يحصر المؤلف استراتيجية الاقتصاد المغربي في الاتي : 1) سياسة اقتصادية ليبرالية . 2) تشجيع استثمار الرساميل المحلية الخاصة والاجنبية . 3) الطلب الخارجي ونفقات الدولة على نمو البنية التحتية 4) محدودية السوق الداخلي . 5) غياب سياسة ادارية لتوسيع السوق الداخلي ، وتجديد بنية توزيع الدخل الوطني .

41 — انظر : ملامح من شخصية علال (مصدر . م.) ص 131

42 — النقد الذاتي (مصدر . م.) ص 59

43 — وعلى النقيض من ذلك يرى (بول باران) في سياق انتقاده للرأسمالية (الاقتصاد السياسي للتنمية — ت :
أن العقل الموضوعي هو الذي يعكس القيم الواقعية الحقيقية في حياة الشعوب وتطور حياتها المادية بما يوفر لها الاحتياجات الضرورية لنموها واطلاق مبادراتها في ظل الامن والحرية .

44 — مما يدعم هذا الرأي قول الدكتور محمد احمد خلف الله : « اننا في حاجة الى الحقائق العلمية وهي حصيلة النشاط العقلي والحرية الفكرية وما لم تتوافر لنا هذه الاشياء لن نلحق بالسابقين الاولين من رجال الفكر الاسلامي ولن نخرج ابدا من دائرة التخلف . وليت قومي يدركون هذه الحقائق ويمارسون الحياة الفكرية على أساس منها .. »
أنظر : ظاهرتان قرآنيتان . العربي (مجلة) العدد 216 . نونمبر 1976. ص 23 وما بعدهـا .

45 — النقد الذاتي (مصدر . م.) ص 59

46 — أنظر مثلا : قصيدة (عمارة فكر) ص 169 . المختار من شعر علال (م. م.)

47 — ملامح من شخصية علال (مصدر . م) ص 35 .

48 — يذكر عبد الكريم غلاب أن علال الفاسي قبل وفاته كان ينوى نشر كتاب عن **الحرية** صرف فيه جهدا كبيرا من التأمل النظرى . وقد سبق لعلال فعلا أن نشر بعض فصول هذا الكتاب فى الملحق الثقافى لجريدة (العلم) ابتداء من أواخر 1969 .

49 — أنظر (ملامح ..) مصدر مذكور ص 178 . والنص لعلال الفاسى كما اقتبسه غلاب ، ومنه أخذنا .

50 — لقد وصف ماركس دور الاستعمار البريطاني فى الهند بقوله : « ان أنكلترا تؤدى رسالة مزدوجة فى الهند ، رسالة هدامة ورسالة تجديدية : اعدام المجتمع الاسيوى ، وتوطيد الاسس المادية للمجتمع الغربى ».

51 — أنظر : المختار من شعر علال (مصدر. م.) ص 62 وما بعدها . وقد أنشأ علال هذه القصيدة بتاريخ 17 يونيه 1971 .

مراحل الفكر الاينشتينى من الاختبارية النقدية الى العقلانية الواقعية

سالم يفوت

يصعب تحديد الاتجاه الفلسفى والمنحى الابستملوجى لاينشتين . فقد تعرض تفكيره لتحولات وتقلبات عديدة ، حيث كان فى البدء ماخيا اختباريا ، ثم ما لبث ان اعتنق آراء شبيهة بآراء بوانكرى تعتبر ان التصورات العلمية مواضعات يختلقها العالم اختلاقا حرا كى ينصح عن الواقع ومظاهره ، فهى ابداعات حرة للفكر البشرى . وبعد ظهور الميكانيكا الكوانطية، التزم اينشتين موقفا يمكن القول انه موقف « واقعى عقلانى »، خلافا لمدرسة كوبنهاغن ، لم يشكك فى الواقع الموضوعى ، كما لم يربطه بالذات الملاحظة وبأدوات القياس ، لقد كان على أتم اقتناع بحتمية الظواهر الكونية كبيرها وصغيرها وبأن الاحتمال لا يعكس خاصية صميمية لمجال الظواهر اللامتناهية فى الصغر ، بل يعكس جهلنا امامها ، وبامكان تحديد الظواهر تحديدا حتميا فى المكان والزمان .

لهذا ، يمكن الحديث عن ثلاث نزعات رئيسية اجتذبت

اينشتين : نزعة اختبارية ماخية ، تخلى عنها ابان الحرب العالمية الاولى ، ثم نزعة مواضعاتية قريبة الشبه بنزعة بوانكرى ، واخيرا نزعة واقعية عقلانية مناهضة لتيار مدرسة كوبنهاغن المثالي ومعادية عموما للوضعية .

* * *

1 ــ المرحلة الماخية

يذهب « جورج هولطون » فى دراسة ساهم بها فى مهرجان البرت اينشتين ــ الذى نظمه اليونسكو فى أفريل 1965 بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة هذا العالم الكبير ــ وذلك تحت عنوان « أين الواقع ؟ اجوبة اينشتين » الى تحديد الاطار الفلسفى الذى تطور فيه الفكر الاينشتينى وابراز مختلف المفاهيم الابستملوجية المتصارعة والمتضاربة التي أثرت فيه . وقد لاحظ أن هناك عدة تاثيرات فلسفية تلقاها اينشتين خصوصا من هيوم وكنط وبوانكرى « الا أن اهم هذه التاثيرات جميعا ، ربما يكون تاثير الوضعية ــ الاختبارية النقدية التى كان الفيلسوف ماخ ، الناطق باسمها . »(1) اذ فى نهاية القرن التاسع عشر ، تزعم أوستفلد وماخ وآخرون انتقاد التفسير الميكانيكي للظواهر الفيزيائية الذى يعتقد أن مهمة النظرية الفيزيائية تتمثل فى ارجاع جميع الظواهر الى القوى الميكانيكية المحركة لها ، واعتبروا ان الروح العلمية تقتضى منا التقيد بمعطيات الخبرة وحدها دون افتراض شيء آخر وراءها ، فلا مبرر اذن لان نجعل الطاقة الميكانيكية اساس باقى أنواع الطاقة . وقد أدى هذا الرأى الى ان تبلورت معهم « ابستملوجية وضعية ، تجمع بين الطاقوية والاحساسوية المحظة »(2) وتعتبر مهمة العلم مهمة فينومينو لوجية تكتفى بقياس المقادير كما تتجلى لنا مباشرة

وتمطانا فى الملاحظة اما على شكل طاقة او كتلة او ضغط أو حجم أو حرارة ... دون البحث عن القوى الميكانيكية الخيالية المحركة لها . لذا ادآن هؤلاء الفلاسفة اللجـوء الى بعـض المفاهيم غير القابلة للملاحظة المباشرة مثل الاثير ، كما قالوا بضرورة اعادة النظر فى المبادىء الاساسية التى كان يعتقد فى صلاحيتها الفيزيائيون المعاصرون لهم مثل الامتداد وقوانـين الحركة النيوتونية ومفهوم القوة ومفاهيم الحركة المطلقة والحركة النسبية . لقد كتب اوستفلد قائلا : « ان الطاقة هى الواقع ، انها الشيء الوحيد الواقعى فى عالمنا الخارجى ... » كما عارض فرضية الاثير التى تقول بانه وسط حامل للنور والجاذبية معتبرا بانه « من غير الافيد البحث للطاقة الاشعاعية عن حامل ما ، ما دمنا لا نرى له أثرا . الشيء الذى سيسمح لنا باعتبار الطاقة الاشعاعية ذات وجود قائم بذاته ومستقلة عن المكان . » وفى هذا كما هو ملاحظ ، سبق لما ستقول به النظرية النسبية الانشتينية فيما بعـد .

وقد عثر على وثائق تثبت اعجاب انيشتيـن باوستفلـد ، واعترافه باستناده فى بعض رؤاه وأبحاثه على أعمال أوستفلد. كما ان هناك رسائل عديدة كتبها أينشتين فى سنة 1901 الى اوستفلد يطلب منه فيها أن يستعمل نفوذه كى يسند أليه منصب أستاذ مساعد بمدرسة البولتكنيك بزوريخ حتى يتمكن من العمل فى مختبره وتتاح له « فرصة استكمال معارفه وتعميقها » بجانب أستفلد (3) .

كما كان الافكار الواردة فى كتاب « الميكانيكا » لماخ وقـع كبير فى نفس اينشتين ، لاسيما وآن ماخ هاجم فيه كثيرا مـن المبادىء النيوتونية وعلى الخصوص ما أسماه « البشاعة الفكرية للمكان المطلق » واعتبر فيه ان المهمة الاساسية الحالية هـى

تخليص العلم من الفروض الميتافيزيقية التى لا تقوم التجارب دليلا على صحتها . ويصرح اينشتين فى سيرته الذاتية ان قراءته لكتاب « تاريخ الميكانيكا » لماخ « زعزعت ايمانه » وايقظت شكوكه حول بعض المبادىء الفيزيائية ، وجعلته يسير فى اتجاه أجرائى محض لا يهتم من الواقع الا بما هو قابل للقياس . وقد اكتشفت فى الستينات وثيقة أخرى تبين أن ماخ ساهم سنة 1911 فى تحرير بيان ينادى بخلق جمعية لنشر الفلسفة الوضعية أمضاه هو بنفسه بمشاركة « بتصولت » و « هيلبر » و « فيلكس كلاين » و « فرويد » (4) .

ويتجلى تاثير ماخ على اينشتين مبكرا ، ففى ديباجة سنة 1905 للنظرية النسبية نلاحظ أن اينشتين فى هذا النص يساوى الواقع بالمعطى و « الحادث » ، ولا يحاول أن يسمو به فوق التجربة الحسية ، مثلما سيفعل فيما بعد . ففى مقال له حول النظرية النسبية نشر بحوليات الفيزياء سنة 1905 كتب يقول : لايجب الانتباه الى ان جميع الاحكام التى نطلقها ويكون الزمان موضوعها ، هي دائما أحكام **حوادث متآنية** . فاذا قلت مثلا : « وصل هذا القطار على الساعة السابعة » ، فانى اعنى بذلك شيئا من هذا القبيل : وهو أن العقرب الصغير لساعتى كان يشير الى الساعة السابعة فى نفس الوقت الذى وصل فيه القطار ، فهما حادثان متآنيان » (5) وتتجلى بوضوح من هذا القول ، النزعة الذرائعية والاجرائية التى انزلق فيها انشتين ، مما جعل نظريته تلقى قبولا وترحابا كبيرين ، وجعل نظرته الذرائعية الماخية تلقى هوى فى نفس اعضاء جماعة فيينا وكل الوضعيين الجدد . ففي الحفل الافتتاحى « لجمعية نشر الفلسفة الوضعية » حيا « بصولت » نظرية النسبية بحرارة واعتبرها نصرا على الميتافيزيقا ألتى تعتبر مفهومى المكان والزمان مطلقين ... ودفعا قويا بالافكار الفلسفية المعاصرة نحو التطور .»(6)

ولم تقف العلاقة بين ماخ واينشتين عند حد اعجاب هذا الاخير بالاول وتتلمذه له ، بل تعدت ذلك لتتحول الى مراسلات دامت طيلة خمس سنوات . من 1909 الى 1913 . ويتجلى من مراسلتهما ان اينشتين كان يميل الى الافكار الماخية خصوصا فى وقت كان فيه ماخ نفسه يتظاهر علنا بتبنى نظرية النسبية مثلما يتجلى ذلك فى كتابه « احتفاظ الطاقة » حيث يقول : « التزم هنا بمبدأ النسبة الذى سبق لى أن ساندته ايضا وبقوة فى كتابى : « الميكانيكا » و « الديناميكا الحرارية ». » (7). وفى رسالة بعث بها اينشتين الى ماخ فى 9 غشت 1909 يشكره فيها على تفضله ببعثه اياه نسخة من كتاب « احتفاظ الطاقة » كتب يقول : « انى بطبيعة الحال ، على اطلاع جيد بمؤلفاتك الرئيسية ، الا أن ما نال اعجابى منها اكثر هو كتابك حول الميكانيكا . لقد كان لك تأثير كبير وقوى على جيل الفيزيائيين الشباب ، الى حد أن خصومك اليوم أنفسهم أمثال ماكس بلانك قد يعتبرون بالتأكيد من طرف جيل الفيزيائيين السابق ، تلامذة لك » (8) واردف انشتين هذه الرسالة برسالة أخرى فى 17 غشت 1909 يقول فيها : « لقد كان لرسالتك المحبية وقع عظيم فى نفسى . وانى لجد سعيد لكون نظريتى نالت اعجابك . اشكرك مرة أخرى من كل قلبى على رسالتك المحبية سابقى دائما وباستمرار تلميذك الذى يجلك . » (9)

وقد بقى اينشتين ، يعلن للملأ تبنيه لافكار ماخ واعجابه بها طيلة السنوات التى تلت هذه المكاتبة ، غير أنه مع حلول عام 1921 ، اى خمس سنوات بعد موت ماخ ، ظهر لهذا الاخير كتاب جديد ، لم يكتب له الصدور ابان حياته ، تحت عنوان : « مبادىء علم البصريات » به مقدمة للمؤلف مؤرخة فى يوليوز 1913 ، اى أسابيع قليلة بعد بعث اينشتين بنسخة

من مؤلفه « النسبية والجاذبية » مصحوبا برسالة حماس واعجاب الي ماخ . ومما جاء فى مقدمة كتاب ماخ ما يلي :
« ارى لزاما على ، وربما تكون هذه هى الفرصة الاخيرة ، ان اذكر بوجهة نظرى فيما يتعلق بالنسبية . فبناء على ما ورد فى المؤلفات الموجودة بين يدى ، وعلى الاخص مراسلاتى ، قد يذهب البعض تدريجيا الى اعتبارى احد الرواد الاوائل للنسبية . لكننى اشعر منذ اليوم بأننى مؤهل لوضع الخطوط العريضة والتوضيحات والشروح الضافية التى يلزم فى ضوئها النظر الى جزء كبير من افكارى المبثوثة فى كتابى حول الميكانيكا . وليس من الغريب ان يشن الفلاسفة والفيزيائيون حربا شعواء على ، فأنا ، كما سبق أن اشرت الى ذلك غير ما مرة ، بحاثة اعالج الامور بدون افكار مبيتة . لذا تكونت لى افكار خاصة بى حول مختلف ميادين المعرفة . الا اننا بقدر ما أرفض من جانبى المذهب الذرى الذى تفرضه المدرسة او الكنيسة الحالية ، بقدر ما أرى لزاما على أن انكر كونى رائد دعاة النسبية . ولا أستطيع أن أغير فى شىء من السبب الذى من أجله ارفض النظرية النسبية الحالية ، والتى هى فى رايى نظرية آخذة فى التصلب الوثوقى بازدياد ، ولا حتى من الاسباب الخصوصية التى تقودنى الى هذه الكيفية فى النظر المبنية على اعتبارات لها علاقة بفيزيولوجيا الحواس ، وبعض الشكوك الابستملوجية علاوة على بعض النتائج المترتبة عن التجارب التي قمت بها والتى اتاحت لى فهم بعض الامور .»(10)

ولشد ما كانت خيبة اينشتين بعد اطلاعه على الكتاب ، تلك الخيبة التى صرح بها خلال مناقشة سيرها هو بنفسه فى باريس سنة 1922 عندما وصف ماخ بانه « فيلسوف ضعيف جدا ». ومما زاد فى شدة وقع الصدمة ان كل أولئك العلماء الذين اعتبرهم اينشتين سباقين لنظريته ، وواضعى أسسها

وركائزها أبدوا نفورا ملحوظا منها ، لاسيما بوانكرى ولورنتز وميكلسون ، اذ بالاعتماد على نتائج هؤلاء جميعــا توصل الى نظرية النسبية ، الا انهم رأوا فيها نظرية عجيبة ، منكرين ان تكون نتائجهم تلك ، تؤدى ضرورة الى القول بها .

ومنذ هذه اللحظة ، بدأ تفكير اينشتين يعرف نــوعا من التحول عن النزعة الوضعية الجديدة ، ويتجه تدريجيا نحــو اتجاه يمكن القول عامة انه اتجاه لا ــ مــاخى ينتقد الاسس الفلسفية للعقيدة الوضعية والتي هى أسس اختبارية . وحتى يبين اينشتين كيف أن المبررات التي أقام عليها خصومه رفضهم للنظرية النسبية من حيث انها نظرية لا تؤيدهــا الدلائــل التجريبية ولا تدعمها الخبرات ، مبررات واهية ، سيقوم بطرح انتقادات مضادة يبرز منها أن العلم ليس وليد الخبرة (كمــا يقول ماخ) وليست تصوراته استنســاخا لها ، بــل هو وليــد ابداع فكرى حر يروم منه العالم تكوين نظرة حقيقية وصادقة عن الواقع .

* * *

2 ــ المرحلــة المــواضعــاتيــة :

دخل الفكر الاينشتينى فى قطيعة مع الاختبارية الماخية والنظر الوضعية الجديدة لطبيعة التصورات العلمية ، وهى قطيعة عبر عنها اينشتين بعبارات قاطعة وجازمة يــوم 21 يونيو 1926 بمناسبة تدشين تمثال اقيم لماخ باحدى ساحات فيينا ، حيث نشر مقالا بمجلة « الصحافة الحرة الجديدة » قال فيه : « من اكبر الحوافز المحددة لنظرة ماخ ، يوجد حافز فلسفى يعتبر أن المصدر الوحيد لجميع المعارف العلمية هو

الخبرات الفردية التى يستنسخها التصور . وقد بقيت جميع بحوثه خاضعة فى توجيهها لهذه القضية الرئيسية ، كما أتاحت له أن يفحص بقوة التصورات الاساسية للفيزياء التقليدية (كالزمان والمكان والمطالة) بتحرر غير معهود فى عصره ... وكثيرا ما انتقد الفلاسفة والعلماء ، وعلى صواب ، انكار ماخ استقلال التصورات استقلالا منطقيا عن « الاحساسات »، وقضائه على الدور الحقيقى الذى يلعبه الكائن البشرى فى التجربة ، أى على تلك المسلمة التى لا تستطيع الفيزياء الاستغناء عنها . » (11)

وفى رسالة وجهها اينشتين يوم 8 يناير 1948 الى أحد أصدقائه الماخيين كتب يقول : « لقد بذل اينشتين جهدا خاصة فى كتابيه « الميكانيكا » و « الديناميكا الحرارية » ليبين كيف أن المفاهيم تنشأ من التجربة . كما دافع ، بطريقة مقنعة ، عن أن هذه المفاهيم ، بما فيها تلك الاكثر اساسية ، ليس لها من صلاحية سوى تلك التى تمنحها اياها المعرفة الاختبارية ، وبالتالى لا تتحكم فى نشأتها اية ضرورة منطقية ... وان ضعف رأيه ليأتي ، فى نظرى ، من كونه اعتقد قليلا او كثيرا أن العلم ليس سوى مجرد ترتيب وتنظيم للمواد الاختبارية ، أى أنه لم يكن يعترف بأى دور لعنصر الابداع الحرفى نشأة التصورات او بمعنى ما من المعانى ، كان ماخ يعتقد أن النظريات تولد بفضل الاكتشافات وليس بفضل الابداعات . بل انه ذهب الى حد اعتبار « الاحساسات » لا مجرد مادة تلزم دراستها ، بل ايضا العناصر الاساسية التى يتكون منها العالم الواقعى ، وظن أن باستطاعته بهذه الطريقة ملء الهوة القائمة بين علم النفس والفيزياء . ولو استخلص جميع النتائج المترتبة عن ذلك ، لوجد نفسه مضطرا لا الى انكار المذهب الذرى فحسب، بل انكار حتى فكرة الوجود الواقعى الفيزيائى . (...) .

فشيء مهم والحالة هذه ا ن يكون ماخ قد رفض بانفعال نظرية النسبية الخاصة . اذأنها فى رأيه نظرية تأملية ، لذا لم يرد قبولها . لكنه لم يكن يعلم ان هذا الطابع التأملى يوجد حتى فى ميكانيكا نيوتن ، وفى كل نظرية يستطيع التفكيـر التوصـل اليها . »(12) . وما ينبغى الادلاء به فى هذا الصدد ، هو ان هذا الموقف الجديد الذى تبناه اينشتين ، كان مجرد رد فعل عى خيبة امل ، فهو موقف دفاعى وقتى ، ولـم تملـه الضرورات الصادرة عن رؤية راسخة للامـور . وكمصـداق علي هذه الملاحظة ، ما ورد فى محاضرة القاها بالكلية الملكية بلندن سنة 1921 ، اى قبيل صدور كتاب ماخ المتاخر ، يقول: « اود بكل نشاط وحيوية ، ان اثير الانتباه الى ان نظريتى ليست وليدة تأمل اننى مدين فى اكتشافها الى الرغبة فى جعل النظرية الفيزيائية مطابقة قدر الامكان للوقائع الملاحظة . فنحن لسنا امام عمل ثورى ، بل أمام استمرار طبيعى فى خط تمكن العودة به الي أغابر القرون . ولايجب اعتبار تخلينا عن بعض المفاهيم المتعلقة بالمكان والزمان والحركة ، والتى لازلنا حتـى الآن نعتبرها مفاهيم اساسية ، عملا تعسفيا ، بل عملا أملتـه شروط الوقائع الملاحظة » (13) .

غير انه باطلاعه على مقدمة « مبادىء علم البصريات » لماخ ، غير كلية تفكيره وسار فى آتجاه مواضعاتى يعتبر تصورات العلم ومبادئه ابداعات حرة للفكر ، وما يطبعها هو الصنيعة. يقول : « آن الطبيعة هى تحقيق للافكار الريـاضية البسيطـة ببساطة فائقة لا تخطر على البال . وأنا مقتنع أنه بفضل تركيبات وانشاءآت رياضية محضـة ، بالامكان اكتشاف ترابط التصورات والقوانين التى تمدنا بمفتاح لفهم الظواهر الطبيعية ، باستطاعة التجربة أن توحى لنا بالتصورات الرياضية الموافقة والملائمة ،

الا أنه من المستحيل جدا ان نستنتج هذه التصورات منها . حقا ، ان التجربة تبقي هى المعيار الوحيد للحكم على النجوع العلمي لانشاء رياضى ما فى الفيزياء ، لكن المبدأ الخلاق يكمن فى الرياضيات . » (14)

وفى كتابه : تطور الافكار فى الفيزياء » يعقد فصلا حول النظرية الكوانطية ، يتحدث فى نهايته عن علاقة الفيزياء بالواقع حديثا ينحو فيه منحى مواضعاتيا حيث يرى أن العلم ليس جمعا لقوانين وليس قائمة لاحداث غير مرتبطة بعضها مع بعض ، بل هو ابتكار للفكر البشرى شيده بواسطة افكار ومفاهيم ابتدعها بكل حرية . ومهمة النظريات الفيزيائية هى محاولة تكوين صورة عن الواقع وربط هذه الصورة بعالم الانطباعات الحسية الواسع . فهى بناءات فكرية ، لاتجد تبريرها وتسويغها الا عندما تنجح فى اقامة مثل هذه الرابطة وفى الكيفية التى تقيمها بها . من جملة المفاهيم الاولية مفهوم الموضوع : هذه الشجرة وهذا الحصان أو هذا الجسم المادى عموما ، يرى اينشتين فى كل ذلك مفاهيم ، أنشأها الفكر البشرى ، ولها أساس فى التجربة ، على الرغم من الانطباعات الحسية التى تستقى منها هذه المفاهيم ، انطباعات بدائية بالقياس الى عالم الظواهر الفيزيائية . الاعداد نفسها خصوصا المحضة ، هى منشآت الفكر نستعين بها فى وصف الواقع . مفهومنا للزمان ومفاهيمنا الهندسية للمكان هى ايضا ابتكارات واختراعات . وهذا ما يفسر لنا تطور الافكار الفيزيائية ، فالجديدة تعمل على هدم القديمة وتتخلى عنها . وهذا مانلاحظه مع نظرية النسبية التى تخلت عن الزمان النيوتونى المطلق وقالت بزمان — مكانى ذى اربعة ابعاد ، وهو ابتكار حر . كما أن نظرية الكوانطا انشأت بدورها صياغات جديدة لواقعنا ، فحل الانفصال مكان الاتصال ، كما حلت القوانين الاحتمالية المحددة

تسرك المجموعات محل القوانين السببية المحددة لسلوك الافراد . فالواقع الذى أنشأته الفيزياء الحديثة أبعد ما يكون عن الواقع الذى عرفه العلم الكلاسيكى . لكن ذلك لا يغير من هدف كل نظرية فيزيائية الذى يبقى هو هو نفسه دوما . فبواسطة هذه الاخيرة ، نشق طريقنا وسط متاهات الحوادث التى نلاحظها ، وتنظم عالم انطباعاتنا الحسية كى نجعل من الحوادث نتائج منطقية للتصور الذى لدينا عن الواقع . فبدون الايمان بامكانية ادراك الواقع والامساك بتلابيبه بواسطة انشاءاتنا النظرية ، وبدون الايمان بالانسجام الداخلى لعالمنا لن تقوم للعلم قائمة . وسيبقى هذا الايمان دوما ، كما يقول اينشتين ، الحافز الاساسى لكل ارتباط علمى (15) .

هكذا طلق آينشتين الاختبارية الماخية كى يعتنق اتجاها مواضعاتيا يدعوه هولطون بالعقلانية الخلاقة او المبدعة ، أى عقلانية تعطى قيمة لدور العقل فى أكتشاف ما وراء الخبرة وما يتعدى معطيات الاحساس . يقول اينشتين فى رسالة بعث بها الى احد اصدقائه فى 24 يناير 1938 : « كنت أنتسب الى الاختبارية الشكلية من النوع الذى كان يناصره مساخ ، غير أن مشكل الجاذبية حولنى الى عقلانى مقتنع ، أى الى رجل يعتبر أن المصدر الصحيح للحقيقة يكمن فى البساطة الرياضية» (16) . وواضح أن ما يقصده اينشتين بالعقلانية هنا ، ليس العقلانية الواقعية التي سيعتنقها مجموعة من المفكرين فى هذا القرن امثال بشلار ولوى دوبروى . . بل العقلانية التى تركز على دور الفكر فى ابداع وانشاء النظريات ، فهى عقلانية مواضعاتية ، من النوع الذى روج له بوانكرى ، ذات مسحة رياضوية ، نعثر على مثيل لها لدى الوضعيين الجدد الذين يلحون على أن قضايا الرياضة والمنطق صورية محض ، تفيدنا فى صياغة الواقع واضفاء صورة البساطة عليه . والجدير

بالذكر ايضا ان هذه « العقلانية » الرياضوية لا تمثل سوى الوجه الاخر للاختبارية ، ولونا من الوانها . والدليل على ذلك هو ان اينشتين نفسه ، فى غمرة حماسه بالاختبارية الماخية ، كان « رياضويا » ينكر عى الرياضيات كل علاقة بالواقع ، وينفى امكان الحكم على قضاياها بالصدق أو عدمه ، ففى الفصل الاول من كتابه : « نظرية النسبية الخاصة والعامة » المنشور سنة 1916 يذهب الى أن الهندسة تنطلق من مفاهيم يقينية كالنقطة والمستقيم والمستوى ومن قضايا بديهية بسيطة نعتبرها صادقة بذاتها صدقا لا يدعو اى مجال للشك . وانطلاقا منها نستنتج قضايا اخرى تترتب عنها منطقيا وتلزم لزوما ضروريا. فالقضية تكون صادقة اذا استنتجت استنتاجا لا تناقض فيه من قضايا اولية « وان مسالة معرفة ما اذا كانت هذه القضية الهندسية أو تلك « صادقة » ستحيلنا بالتالى الى مسالة معرفة ما اذا كانت القضايا الاوية « صادقة » . ونعرف منذ زمــن طويل ، لا فحسب ، اننا عاجزون عن اعطاء جواب لهذه المسالة بواسطة مناهج الهندسة ، بل انها ايضا مسالة خالية من اى معنى . (...) فمفهوم « الصدق » لا ينطبــق على عبــارات وقضايا الهندسة البحتة ، لان كلمة « صادق » أو « حقيقى » نعنى بها فى نهاية الامر مطابقة مافى الذهن بموضوع « واقعى ». بينما الهندسة لا تهتم بعلاقة مفاهيمها وموضوعاتها بالتجربة ، بل بالعلاقة المنطقية القائمة بينها فقط . »(17) ففى الرياضيات لا نهتم سوى بالصفة الصورية للقضايا فى انفصال عن الواقع، انها انشاءات حرة يقوم بها الفكر البشرى ، وهى متحللة من كل محتوى وخالية منه ، فهي صورية بحتة .

اذا ، فهذه المرحلة الثانية من الرحلة الفكرية الاينشتينية ، لا يمكن القول انها تحقق فصلة كلية وتنجز قطيعة منهجية كاملة مع الاشكالية الاختبارية المتمثلة فى الماخية ، بل هى مجرد اعلاء

لطرفها الاخر ، واحياء للون آخر من الوانها هو المواضعاتية والرياضوية . الا أنها مع ذلك ايقظت اينشتين من نشوتــه الماخية ، ودفعته الي القيام بمراجعة نقدية لاسس الفلسفــة الاختبارية ونتائجها الابستملوجية التى افتضح خطرها بعد ظهور الميكانيكا الكوانطية وعلاقات الارتياب والتفسير الاحتمالى لها . وقد تمخض كل ذلك عن انتهاء اينشتين الى نظرة عقلانية واقعية للعلم مناهضة للوضعية ، وتدافع باستماتة عــن أن الواقــع الموضوعى يوجد باستقلال عن الذات ، ولا يمكن وضعه موضع شك ، خلافا للتفسير المثالى الاحتمالي الذى اشاعته مدرسة كوبنهاغن ، كل هذا مع شيء من التحفظ يمكن تلخيصه فى القول بأن المسحة المواضعاتية بقيت ملازمة للفكر الاينشتينى طوال مراحل تطوره ، دون أن تمنعه مع ذلك من أن يكــون فكــراً عقلانيا اثر تأثيرا بالغا فى لوى دوبروى خاصة وجعله يراجــع نفسه فيرفض وجهة النظر الاحتمالية ليتبنى الموقف الموضوعى الواقعى كما سنرى . فهى مواضعاتية ليست كمواضعاتيــة لوروا ودوبيهم ، ولا يمكن أن تفهم الا فى ضوء « المرحلة التى عاشها العلم فى بداية هذا القرن والتى شهدت تحولا أساسيا فى المفاهيم الفيزيائية نتيجة قيام نظريــة النسبيــة ونظريــة الكوانطــا » (18) .

* * *

3 ـ المرحلة العقـلانية الواقعية

أبدى اينشتين نفورا ملحوظا من الميكانيكا الكوانطية منذ وقت مبكر، أى منذ اللاحظة التى أعلن فيها ماكس بلانك سنة 1900 أن المادة والاشعاع ذات بنية انفصالية متقطعة تظهر على صورة وحدات كوانطية ، فابتداء من سنة 1905 ساورته الشكوك

حول القيمة الواقعية للنظرية الكوانطية فى الضوء . مما أذكى ميله نحو الواقعية وقوى تشبثه بها . نفى رسالة وجهها الى أحد اصدقائه فى دجنبر 1911 كتب يقول : « ان الكوانطا تقوم بما هى ملزمة بان تقوم به ، آلا آنها لا توجد ، بالضبط مثلما لايوجد بحر الاثير الساكن .» (19). وفى رسالة اخرى وجهها الى العالم « ماكس بسورن » فى 24 ابريـــل 1924 يقــول : « يهمنى جدا راى بوهر حول الاشعاع غير انى لا اريـــد أن اطلق العنان لنفسى فاتخلى عن السببية الدقيقة قبل ان تكون الحجج الواردة ضدها فى مستوى اقوى مما هى عليه الان ... لقد منيت محاولاتى المتكررة الرامية الى اعطاء الكوانطا صيغة ملموسة ، بالفشل . هذا صحيح ، الا اننى مع ذلك ، ولامد طويل ، لست مستعدا للتخلى عن كل أمل .» . وفى رسالة اخرى الي « ماكس بورن » أيضا مؤرخة فى 2 دجنبـــر 1947 يقول : « ان النظرية الكوانطية غير متفقة مع المبدأ القائل بأن الفيزياء تصور الواقع فى المكان والزمان » (20) .

هذا ، وكان اينشتين قد كاتب قبل ذلك «موريتس شليك» زعيم مدرسة فيينا وخلف ماخ ليخبره فيها بعدم اتفــاقه مــع التفسير الاحتمالى الوضعى للاشكالية الكوانطية . وقد جاء فى رسالة الي شليك مؤرخة بـــ 28 نونمبر 1930 ما يلـــى : « بكيفية عامة ، ارى ان تفسيركم قلما يتفق مع أسلوبـــى فى النظر من حيث أن التوجيه الطاغى عليكم يمكن اختصاره فى كلمة والقول بأنه توجيه وضعى ... ولنقل بصراحة أن هدف الفيزياء هو محاولة انشاء نماذج فكرية **للعالم الواقعى** ولبنية قوانينه . حقا ، ان على الفيزياء أن تبرز على نحو دقيـــق العلاقات الاختبارية القائمة بين التجارب المحسوسة التى نقوم بها . غير انه **بهذه الطريقة وحدها فقط** تكون الفيزياء مرتبطة بالتجارب وليس بطريقة أخرى غيرها ... باختصار انى أشعر

بحسرة وبألم على تمييزكم المبهم بين واقعية ـ التجربة وواقعية ـ الفكر ... وربما ستصيبكم الدهشة من اينشتين « الميتافيزيقى ». لكن ، كل حيوان يسير على أربع قوائم ، أو على قائمتين ، هو ميتافيزيقى بهذا المعنى « التشديد من اينشتين ». والملاحظ أنه يريد فى هذه الرسالة أن يهدم القضية الفلسفية الاساسية التى تصدر عنها النظرة الوضعية وهى اعتبار الممارسة العلمية آستنساخا للخبرة والتجربة ، بالتأكيد على أن الخبرة والتجربة دورهما لا يعدو أن يكون مناسبة لانشاء وابداع التصورات العلمية .

كما اتخذ اينشتين فى مؤتمر سولفى الخامس (1927) موقفا سلبيا من التفسير الاحتمالى الذى اقترحته مدرسة كوبنهاغن ، خصوصا وأن فريق العلماء الشبان تكتل حول هذا التفسير ، ماعدا البعض أمثال دوبروى ولورنتز ... وحتى فى التدخل الذى قام به ، لم يقل شيئا ذا بال ، فقد تحدث مرة واحدة طيلة جلسات المؤتمر ، ولفترة وجيزة جدا لم تتجاوز بضع دقائق أعلن فيها رفضه القطعى للتفسير الاحتمالى مؤكدا أن الفيزياء الكوانطية اخذت تسلك سبيلا سيئا واصبحت ترتمى فى مسلك غير قويم . وقد صارح اينشتين لوى دوبروى فى كواليس المؤتمر بأن مشاكل الفيزياء الكوانطية اصبحت جد معقدة ـ وأنه لم تعد لديه الرغبة فى الانصراف الى دراستها لانها مشاكل صعبة وهو رجل أصبح عجوزا . (21)

غير ان صمت اينشتين لم يستمر طويلا ، كما أن انزعاجه من التفسير الاحتمالي لم يثبط من عزيمته ، ذلك انه لمس أن هناك سبيلا مضمونا واحدا أمام الفيزياء هو التزامها طريق الواقعية العقلانية . وانطلاقا من هذه الرؤية اعاد النظر فى بعض خصوماته القديمة أيام كان مرتميا فى احضان الاختبار

الماخية : اهمها خصومته مع ماكس بلانك ، فقد كان هذا الاخير يناهض الماخية ، وله فى ذلك مواقف شهيرة عبر عنها فى كتاباته، وقد تحمل اينشتين فى المرحلة الاولى من حياته الفكرية مسؤولية الدفاع عن ماخ ضد بلانك والرد على هذا الاخير من مواقع اختبارية وضعية ، الا أنه بعد افتضاح الخلفيات الفلسفية المثالية للوضعية ، تراجع عن موقفه العدائى من بلانك وأصبح يرى فى نظره هذا الاخير الرؤية الصحيحة التى ينبغى التزامها والدفاع عنها . فقد كتب فى سنة 1931 يقول : « هل فى وسعى أن أجيز لنفسي الزيادة فأقول بان الكيفية التي يتصور بها بلانك الحالة العلمية الحاضرة ، (...) تتفق كلية وما أعتقده انا بدورى .» (22) . وهذا النص جزء من رسالة بعث بها اينشتين الي احدى المجلات التي كان من المقرر أن يصدر فيها بلانك مقالا له تحت عنوان : « الوضعية والعالم الخارجى الواقعى » (23)، حتى تكون كمساندة ودعم للمقال ، الا أنها وصلت متأخرة فلم يكتب لها الظهور وبقيت ضمن الارشيف .

هكذا تمحورت واقعية اينشتين العقلانية حول فكرتين اساسيتين هما نفسهما الفكرتين اللتين دافع عنهما معارضو التفسير الاحتمالى للفيزياء الكوانطية أمثال دوبروى وبلانك : يوجد عالم واقعى وموضوعى خارجا عن الذات وباستقلال عنها، كما أن معرفتنا به معرفة موضوعية لا تتطلب ادراكه فى الاحساس والخبرة فقط ، بل بالاساس انشاءه عقليا واعادة بنائه . لقد كتب فى رسالة شهيرة الى ماكس بورن يقول : « لقد أدى بنا تطور العلم الى أن اصبح كل منا على طرف نقيض من الاخر. أنت تؤمن باله يلعب النرد ، اما أنا فاومن بوجود قواعد دقيقة وقوانين يخضع لها الكون خضوعا موضوعيا ... » (24) . فالاحتمال الذى تتضمنه الفيزياء الكوانطية الاحصائية لا ينبغى أن ينسينا أن العلم لا يمكنه التخلى عن فكرة خضوع الظواهر

للقانون . فالاحصاء ليس يمثل حلا نهائيا لمشكل تحديد حركة الجسيمات الدقيقة ، يقـــول : « لا يمكننـــي أن آخـــذ بالنظرية الاحصائية بصورة جدية ، لانها تتعارض مع المهمة الاساسية للفيزياء ، أي وصف الواقع في المكان والزمان (...) وانني مقتنع تمام الاقتناع بأننا سننتهي بنظرية تكون الروابط والعلاقات فيها حقائق ، لا احتمالات » (25). فالصفة الاحصـــائية للنظريـــة الكوانطية الراهنة ناتجة بالضرورة عن عدم كمـــال وصفنـــا للمنظومات الملاحظة ، فلا مبرر يدعونا الى الاعتقاد بان أساس الفيزياء سيبقى مستقبلا هو الاحتمال ، وأن هيزنبرغ وديتوش و .... باعتقادهم أن حتمية الفيزياء الكوانطية حتمية صميمية يغفلون مسالة أساسية وهي أن النظرية الكوانطية القائمة ، لا تمثل سوى مرحلة انتقالية من تطور العلم ، ولا يمكن التشبث بها كمنطلق أكيد ونهائي لتطور الفيزياء اللاحق . فالاحتمال لايمكن أن يكون أساسا لتطور الفيزياء ، وتبقى دائما هناك امكانية التوصل مستقبلا الى نظرية بواسطتها نستطيع الافصاح عن حركة الجسيمات الدقيقة منفردة بواسطة داله متصلة زمانيا ومكانيا .

انطلاقا من هذا المنظور حارب التفسير الوضعي الطاغي علي مدرسة كوبنهاغن الذى قد يوقعنا في انكار واقعية العالم الخارجي الموضوعي وفي ريبية وشكية تمنعاننا من أن نقـــول شيئا يقينيا وموضوعيا عنه . « أن ما لا يعجبني ... هـــو الموقف الوضعي الذى لا يستطيع الصمود ، والذى يظهر لي مطابقا لقولة بركلي : الوجود هـــو مـــا يحـــس بـــه ». (26) فالوضعيون باعترافهم أن الاحساسات وحدها هي الحقيقة ، واعتبارهم كل ماعداها تركيب وربط لها منطقيا ، يقعون في المثالية الذاتوية التي لا تقر بالواقعية الا لما يجرى في حدود الخبرات الشخصية الفردية .

ويذهب الاستاذ دوبروى الى أن أينشتين عارض بحماس افكار بوهر وهيزنبرغ الجديدة . أذ قدم فى مؤتمر سولفـى اعتراضات جدية ووجهية على تفسيرهم للميكانيكا الكوانطية . وبعد ذلك بسنوات قليلة أظهر فى « مجلة الفيزياء » مقالة موقعة من طرفه ومن طرف عالمين آخرين هما « بودولسكى » و « روزن » تحت عنوان : « أمن الممكن أعتبار وصف الميكانيكا الكوانطية للحقيقة الفيزيائية كاملا ؟ » (العدد 47. 1935) وكان الجواب لا بناء علي الاعتبارات التالية : اننـا عندمـا نتساءل عما اذا كانت نظرية ما تامة أو كاملة ، لا نقصد بذلك التساؤل عما اذا كانت تنجح نجاحا مطلقا فى شرح وتفسير الظواهر المعروفة ، أو معرفة ما اذا كانت تحاول أن تكـون كذلك ، والا اصبحت نظرية متحجة وواثقة من نفسها اكثـر من اللازم وساذجة مفرطة فى السذاجة . أن ما نعنيه من ذلك الوصف هو انها تحقق فعلا الهدف الذى تسعى اليه . ومـا تسعى اليه الكوانطية هو وصف « الشىء الميكروسكوبى » . وقد يسعفها الحظ فى ذلك قليلا او كثيرا . وهو امر طبيعى . غير ان ما هو غير طبيعى ، أن تحول المياكتيكا الكوانطيـة العقبة التي تحول دون كمال الوصف الى عقبة قارة ودائمة وأن تبتر الوصف وترمى بأحد اجزائه الاساسية جانبا . ان كل نظرية لابد وان تحتوى على نقائص ، ولا يمكن لها ان تكون نظرية كاملة ، غير ان ما هو ليس معقولا ، ان نعتبر ثغراتها صفات أو خصائص صميمية ومتأصلة فى منهجها وطريقتها . اى ينبغى ان نعتبر تفسيرنا الناقص للظواهر نقصا وليس خاصيـة متأصلة فى طبيعة تلك الظواهر . فالبتر قد يكون ضروريا فى بعض الاحيان ولكن لايجوز أن يرفع كمبدأ او شعار . ويرى دوبروى (27) أن قيمة الاعتراضات التى تقدم بها اينشتين لا تأتى من انها تعطى حلا بديلا للمشكلة ، بل من كونها كانت

من القوة والمتانة والوجاهة بحيث جعلت الخصوم يرهفــون دعاويهم أكثر ويدققونها ويعيدون النظر فيها حتى تصمد امام انتقاداته . والسؤال المحرج والمربك الذى ما فتىء اينشتين يطالب بجواب واضح عنه هو : كيف نعرف الواقع الموضوعى فى الميكروفيزياء ؟ لا سيما وأن هناك مصادرة يلزم على كل عالم فيزيائى ان يصدر عنها فى تفكيره وهى ان هناك واقعا فيزيائيــا يوجد بصفة موضوعية وباستقلال عن كــل ذات أو مشاهــدة أو قياس . الا انها مصادرة ، يرى اينشتين ، أن معظم معاصريه يرفضـــونهـــا .

هـــوامـــش :

1) G. Holton. Où est la réalité ? Les réponses d'Einstein, in Science et synthèse. Colloque - Gallimard - 1967 - p. 98.

2) Ibidem.

3) C.F. F. Herneck - Forschungen und Forschritte - 36; 1964. p. 75. cit. par G. Holton - p. 99.

4) C.F. F. Herneck - Physikaliseche Blätter. 17 ; 1961 - p. 276, cit. cit. p. 6 - Holton. p. 102.

5) A. Einstein - Annalen der Physik - 17.1905 - pp. 891-921 cit. par G. Holton - p. 104

6) Zeit schrift für Poliosophie - 1, 1913 - p. 4 - cit. par Holton . p. 105.

7) Cit par Holton - p. 107

8) Ibidem.

9) Ibidem. - p. 108.

10) Ibid. - p. 113.

11) Ibid. - p. 103.

12) Ibid. - p 115-116.

13) A. Einstein - On the Theory of Relativity - New York - 1954 - p. 246 - cit. par Holton - p. 117 - 118.

14) Cit. par Holton - p. 119.

15) A. Einstein et L. Infeld. d'évolution des idées en physique. Paris Flammarion - Ford - M. Solovine - 1938 - Chap. IV. p. 286-288,

اعتمدت ترجمة الاستاذ عابد الجابرى ـ المنهاج التجريبى وتطور الفكر العلمى . ص 352 وبعد .

16) Cit. par Holton - p. 131.

17) A. Einstein. La théorie de la relativité restreinte et générale. Trad. M. Solovine - Gauthier - Villard - 1976 - p. 2-3.

الدكتور الجابرى ـ المرجع الانف . ص 351

19) Cit. par Holton - p. 132

20) Correspondance publiée par M. Born in Universitas. 8 1966 - 1966 – p. 32 - 44 - cit. par Holton - p. 133.

21) Voir Marie Antoinette Tonnela T. - L. de Broglie et la mécanique ondulatoire - Seghers 1969.

22) Ahrcives Einstein - Cit. par Holton p. 131.

23) Cit. article est reproduit in : L'image du monde dans la physique

24) Cit. par Holton - p. 133.

25 ـ اورده الدكتور محمد عبد اللطيف مطلب ـ الخلاف بين اينشتين ومدرسة كوبنهاغن ـ آفاق عربية ـ بغداد ـ يوليوز 1977 ـ ص.59 دون ذكر المصدر .

26 ـ نفس المرجع .

27) L. de Broglie - Savant et découvertes - A. Michel - 1956 - p. 334.

مشكل المضمون فى الادب العربي:

الرواية المغربية

بقلم : البشير الوادنونى

1 ــ اذا أردنا ان نبحث الموضوع المحدد فى العنوان أعلاه بجدية وموضوعية ينبغى أن نعمد أولا الى تحديد الاســس الفكــريــة والمبــادىء النظــريــة العامة لمضمون الادب . ان قضية المضمون من المسائل التى يكثر حولها الجدل وتثار باستمرار كلما تعلق الامر بدراسة وتحليل الاعمال الفنية ، وعلى الرغم من أهميتها لم تصبح بعد مادة استقصاء خاص فى ادبنا الحديث ولم تكرس لها الدراسات الحديثة المستقلة ما خلا استثناءات قليلة جدا مع العلم انها كانت قوام نقدنا القديم. اما المعالجات التى تناولتها فكثيرا تنطلق من نظريــات شكليــة وصيغ جزئية توحى بوجود انفصام بين الشكل والمضمــون وباسبقية الاول على الثانى حين توعز بما يمكن أن يفهم منه ان العمل الادبى ينقسم الى قسمين وأنه لا يمكــن بالتالــى دراسة المضمون الا عن طريق الاعتراف أولا بوجــود الاثــر الادبى كشكل قائم مفصول عن محتواه خاصة وان الشكل هو

الذى يلوح أمامنا كما فكرنا فى الرواية مثلا أو القصة القصيرة .... والحق ان الطرح الصائب للقضية لا يكـون بهذا الفهـم المغلوط الذى يضع حاجزا رفيعا بين أجزاء العمل الفنى . فكما أنه لا يجوز عمليا الفصل بين الابرة والخيط اثناء عملية الخياطة كذلك لا يجوز عزل الشكل عن المضمون فى النتـاج الادبى الا بطريقة نظرية تجريدية متعسفة .

ولان الطرح السليم لهذه القضية لا يتحقق الا بالنظرة الشمولية والتفكير الجدلى الذى يعتبر العمل الادبى وحـدة مترابطة الاجزاء متكاملة العناصر فى الوقت الذى يربطه بكلية عامة هى الظاهرة الاجتماعية أو الواقـع الموضوعـى فمـن الضرورى رسم الاطار النظرى الواضح لهذه المشكلة التى تعتبر كغيرها من قضايا الابداع الفنى مجالا خصبا وفسيحا يحتد فيه الصراع بوضوح بين المادية والمثالية .

2 ــ المفـاهيـم الاولى للمضـمـون :

يرتبط بمفهوم المضمون عدة مفاهيم ومقولات أخرى لابد من فهمها بدقة واستخدامها بكيفية ملائمة تجنبنا البلبلة والتشوش وتبعدنا عن الغموض والعشوائية . من هذه المصطلحات مثلا المنهج الفكرى والابداعى ، العقيدة ، الاسلوب ، الشكل .

يبدو للوهلة الاولى أن هناك تقاربا بين هذه المفاهيم يكاد يبلغ درجة التطابق بالنسبة للمنهج الفكرى والاسلوب والمضمون خاصة . والحق أن لكل واحد من هذه المصطلحات دلالتـه الخاصة ومفهومه الواضح المحدد وذلك بسبب وجود فـوارق دقيقة تفصل بينها وتميز كل مصطلح عن الاخر من حيث الدلالة والاستعمال المنهجى . فاذا أمكن ان نفهم المنهـج الابداعـى والفكرى على أنه تصور الكاتب عن المضمون الفكرى لعملـه

الادبى باعتباره الطريقة التى تلخص مجمل المبادىء الاساسية الاختبار الفنى ، لتقييم وتعميم ظواهر الواقع ، لانه يعبر عن البرنامج الجمالى للفنان وعن رؤيته للترابط بين الفن والواقع فان العقيدة تقترب من معنى المنهج الفكرى وان كانت اكثر منه اتساعا وعمومية . اما مفهوم الاسلوب فهو ينفرد بالتعبير عن الجانب الذاتى فى العمل الادبى ويلتصق بشخصية الفنان ، لان الاسلوب كما هو معروف هو الكاتب ، هو مواصفات ابداعه . (1)

توجد بالطبع عدة تفسيرات أخرى تعتبر الاسلوب مجموعة التصورات التشكلية ومجمل الطرق التقنية التى يلجا اليها الكاتب فى عمله . غير أنها تفسيرات مثالية وخاطئة لان الاسلوب باى معنى اخذ لا يمكن أن يعنى غير المضمون والمنهج الفكرى ولان الاهمية الكبرى للاسلوب والمنهج الابداعى تكمن فى المضمون . ومضمون الادب هو ادراك الكاتب للحقيقة الموضوعية التى لا تدخل فى الرواية ، فى الاقصوصة ... كحقيقة معكوسة خارجة عن نطاق العمل الادبى عديمة الصلة به ، وانما تدخل فيه كحقيقة عاكسة موجودة داخله ، كتشكل ذاتى للعالم الموضوعى الخارجى . وهذا معناه أن مضمون الادب لا يتحدد كحقيقة وانما كانعكاس لها ما دامت الحقيقة الموضوعية هى أدراك الفنان المحدد لظواهر الواقع وتقييمه لها بوصفه ممثلا طبقيا لاحدى القوى الاجتماعية . « فالموقع الطبقى والاجتماعى يحدد الاتجاه الرئيسى فى التفكير الفنى ويكون المنهج والاسلوب الابداعى ».(2) وطبيعة التفكير تتحدد كما هو معلوم عن طريق الوعى الاجتماعى الذى ينعكس فى وعى الذات ليرتدى اشكالا متنوعة جدا للتعبير وذلك على أساس الموضوعة العلمية القائلة :

« ان الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى تماما كالوجود والوعى بشكل عام ليسا متطابقين » . (3)

ان مضمون العمل الادبى هو اذن الانعكاس الواعى للحقيقة الموضوعية وفى هذا تكمن كل الجوانب المتعلقة بالاصالة والتفرد . لان الخصوصية الجمالية هى قبل كل شىء خصوصية الوعى الابداعى ، وليست الاصالة كما يقول هيجل سوى « القدرة على التفكير بشكل مستقل ورؤية المضمون المميز وغير المتكرر فى أية ظاهرة حياتية » (4) وعلى هذا فالمنهج الابداعى نتاج علاقات اجتماعية تتحدد فعاليته بالمعطيات الموضوعية للواقع والتاريخ ، لزمان والمكان . هذا التحديد للمضمون هو أكثر التعريفات قبولا ولا يسبب تناقضات مبنية عند الاتفاق على ما هو المجال الفعلى للحقيقة لتكون موضوعا للانعكاس فى الفن . فالمضمون فى الرواية مثلا هو دائما شكل ادراك الواقع الخارجى لان صورة الفن أو شكله الفنى هى دئما صورة المضمون . وبامكاننا ان نصل الى العمل الادبى من زاويتين : من وجهة نظر مضمونه اولا على أساس أن العمل الادبى نظرة عامة ايديولوجية للحياة « رؤية للعالم » كما يقول لوكاتش ومن وجهة شكله الخاص المتميز .

ان تفسير المضمون بهذه الطريقة يعنى ان كل مضمون لاى عمل فنى كان يتضمن بالضرورة مكونين اساسيين هما جدليا ويعبران معا عن موقف فكرى واجتماعى (طبقى) وفنى . لهذا فنحن لا نستطيع بتاتا أن نتصور المضمون مفصولا عن الشكل . صحيح ان مسالة الشكل والمضمون كانت دائما قضية خلافية الا انها اليوم من الوضوح بحيث لم يعد فيها مجال للتردد والاضطراب وخاصة منذ أن كشف هيجل ، والمادية الجدلية بعده ، عن ضعف وخطل النظرية الشكلية التى ابتدعها (كانت)

وغيره من المفكرين المثاليين . هاجم هيجل نظرية (كانت) الشكلية التى لا ترى عناصر الجمال الا فى الشكل وتلقـــى بالمضمـــون خارج نطاق الجمال ، وجاهر باتحاد الشكل والمضمون معتبراً ((ان الفن هو عرض خارجى للادراك أو هو تعبير عن ((الفكرة)) حين تعنى بموضوع غير متعلق بها ... موكداً أن الفن يجسد الفكرة ، وعلى قدر سلامة ذلك التجسيد يكتسب العمل الفنى جماله)) . (5) لم ينكر الفيلسوف الالمانى (هيجل) العلاقة الجدلية بين المضمون والشكل ولا المحتوى الموضوعى والتاريخى للفن ولكن رأيه هذا بقى مع ذلك منسجماً تمام الانسجام مـــع نظريته المتعلقة بتطور الفكرة عبر التاريخ التى كـــرس فيهـــا تقسيمه الثلاثى المشهور للفن . وعندما ميز (هيجل) بيـــن المراحل الثلاث لتطور ((الفكرة)) : مرحلة الفن والدين والفلسفة لاحظ ان الفن يمثل شكلاً ناقصاً من أشكال المعرفة .

اما الرواية فقد عرفها قائلاً انها الملحمة البورجوازيـــة العصرية وربط بينها وبين تعدد المصالح والاوضاع فى مجتمع الفهم الواضح لظواهر الحياة وتقييمها . والفهم والتقييم مرتبطان متبدل التنظيم يتعارض فيه الواقع وامنيات الروح . (6)

3 ــ الـــروايـــة المغـــربيـــة :

لن اتحدث فى هذا البحث عن الرواية بصفة عامة بل عن نوع محدد منها أفترض أننى أستطيع الكلام عنه باطمئنان لصلتى المباشرة به ، هو الرواية المغربية ، دون ان يعنى اقتصارى على هذا النموذج من الادب العربى الاستغناء عن التطرق الى الى جوانب تتعلق بفن الرواية ، لان الرواية المغربية هى قبل كل شىء جزء من هذا التراث الحضارى وامتداد وتطوير له من بعض الوجوه . ومع ذلك لا ينبغى ان نسقط فى وهم هذا التعميم

فالرواية هى بالتحديد وحسب تعريف هيجل ملحمة البورجوازية العصرية ، واعتقد آن هذه الموضوعة تصدق على الرواية الغربية وعلى الرواية العربية والمغربية على حد سواء .

ليس من شان هذا البحث تفصيل القول فى عوامل نشوء وتطور الرواية المغربية وانما يهمه بالدرجة الاولى الاشارة الى أن هذا النوع الادبى حديث العهد فى بلادنا وهو لا يزال فى طور التكوين والتبلور لانه ــ كما كان عليه الامر فى بلدان عربية أخرى ــ ظهر متاخرا وكان ثمرة من ثمرات احتكاكنا بالحضارة الغربية ونتيجة من نتائج انفتاحنا على الادب العالمى عن طريق اللغة والفكر الاستعماريين ثم عن طريق اللغة العربية واتصالنا الاخير بالشرق العربى وتراثه الادبى . فالادب المغربى الحديث حاصل صراع حاد بين ثقافتين : وطنية واستعمارية ، الاولى تقليدية محافظة ارتبطت بالماضى وحافظت على التراث ولم تتطور الا بعد الاستقلال ، والثانية مرنة ومتقدمة امتازت بقابليتها المتعددة وتكيفها مع متطلبات العلم والعقل ولذلك استطاعت أن تفرض وصايتها على الثقافة الوطنية خاصة عندما تشبع بها مثقفو البورجوازية الذين ارتبطوا بالاستعمار وحافظوا على مصالح المتروبول بتعبير (فرانز فانون) . يمكن القول بأن اللقاء الذى ظهر منذ البداية فى صورة صراع بين الثقافتين ثم مع بداية الحماية فى مستهل هذا القرن عندما بدأ النضال السياسى المسلح ضد المستعمر يوازيه ويدعمه نضال فكرى ضد الثقافة الغازية والايديولوجية الدخيلة . غير أن المواجهة الفكرية للمستعمر لم تتبلور بكيفية حادة وعنيفة الا ابان ظهور واشتداد الحركة الوطنية المغربية 1925 ــ 1956 وهى حركة تحررية مهدت لها السلفية والمذاهب القومية التى انتشرت فى المغرب بفضل شخصيات فكرية مرموقة مثل شيخ الاسلام العربى العلوى ، بوشعيب الدكالى . وبواسطة هاته الشخصيات

اصبحت السلفية والقومية تشكلان القواعد التاريخية والاسس الايديولوجية للحركـة الوطنيـة المغربيـة . وفى العشرينـات والثلاثينات من هذا القرن ظهرت اجيال اخرى من مثقفى الطبقة الوسطى تخرجوا من جامعة القرويين ومن المدارس الفرنسية المزدوجة وهؤلاء هم الذين تحملوا مسؤولية تنظيم وقيادة وتوجيه الحركة الوطنية فى صراعها ضد المستعمر . وابتداء من منتصف الاربعينات برزت البورجوازية الكبيرة كقوة اجتماعية غنية اهلتها ظروفها الخاصة للاستفادة من المعطيات الموضوعية والامكانيات المالية والتجارية واستطاعت بفضل مركزها المادى ان تساهم فى الحركة الوطنية وتؤثر على توجيهها ... وكسبت الى جانبها مجموعة من المثقفين من الذين انخرطوا فى الحركة وعملوا على تحقيق طموحاتهم الفردية بواسطتها .

هكذا اثمر اللقاء المفروض مع الغرب وحضارته نتـائجـه الايجابية والسلبية فى الخمسينات والستينات وظهرت الرواية المغربية لتعبر عن وعى وطنـى بورجـوازى باوضـاع بلادنـا الاجتماعية والتاريخية والفكرية كتبتها مجموعة اسماء تنتمى فى معظمها الى الطبقة الوسطى وتعبر اما باسم هذه الطبقة واما باسم البورجوازية الوطنية الكبيرة وهى الطبقة التى ارتبـط بها بعض هؤلاء المثقفين واصبحوا اليوم يمثلونها ويدافعون عن مواقفها ومنظوراتها فى كتاباتهم الادبية والفكرية .

ان واقع التجزئة والازدواجية المترتب عن عهد الحمـاية جعل الادب المغربى الحديث ينقسم الى قسمين : قسم مكتوب بالفرنسية وآخر بالعربية . ومن الملاحظ ان القسم الاول ازدهر فى عهد الحماية وغداة الاستقلال وهو الان آخذ فى التقلـص والانحسار . اما القسم المعبر بالعربية فهو لم ينم الا فى مرحلة الاستقلال . واذا كان الادب المغربى المكتوب بالفرنسية أسبق

الى الوجود والنوع الثانى تال له فهما معا لا يزالان يتعايشان فى نوع من المنافسة الحرة خاصة بعد الانعطافة التى حدثت فى الادب المغربى المكتوب بالفرنسية فى الستينات وجعلته يلتقى فى نقاط كثيرة مع الادب المعبر بالعربية ويتحد معه فى الرؤية والمضمون من أجل تكوين ثقافة وطنية اصيلة وتقدمية .

يذكر باحث مغربى معاصر (*) أن اول انتاج روائى كتب بالمغرب هو رواية — ادريس — كتبها مؤلفها بالفرنسية وتناول فيها الوضع الاقتصادى والسياسى فى البلاد . وبعد رواية اعمانمى محمد هذه ، توالت الاعمال النثرية المعبرة بالفرنسية فكتب احمد الصفريوى (صندوق العجائب) سنة 1954 صور فيها طفولته وضمنها لوحات فنية عن الحياة المغربية اذ ذاك بما فيها من ماض وتقاليد وعادات . ثم الف ادريس الشرايبى وهو مهندس كيماوى وصحفى وكاتب مجموعة روايات منها : الماضى البسيط ، التيوس ، الحمار ، .. ثم ظهرت فى الستينات روايات مغربية أخرى منها اكادير لخير الدين محمد ، والعين والليل ، للعبى عبد اللطيف ، (الذاكرة الموشومة) لعبدالكبير الخطيبى ، (حرودة) للطاهر بن جلون .

امـا الروايـات المكتوبة بالعربية فقد ظهرت منذ مستهل الخمسينات وكانت أسبقها رواية — فى الطفولة كتبها عبد المجيد بن جلون فى نهاية الاربعينات .وتتابعت بعدها مجموعة نماذج لكتاب آخرين فى الستينات والسبعينات وعددها المنشور حتى الان يتجاوز عشرين رواية عدا ما هو جاهز للطبع منذ سنوات ولا ينتظر سوى الفرصة المواتية لظهور مثل :

(ايها الضياع)لمحمد السرغينى ، (القيد) لمبارك الدريبى ، (الغد والغضب) لخناثة بنونة .

4 ـ الرواية والواقع : علاقة التبادل :

لم يكن الهدف من هذا الاستطراد اعطاء فكرة عن نشأة الرواية المغربية بفرعيها فحسب بل ايضا تاكيد حقيقة كبرى سبقت الاشارة اليها الا وهى ارتباط الرواية بالواقع الاجتماعى، بتحولاته التاريخية والفكرية . ان هذه العلاقة ذات أهمية قصوى ويهمنى ان اقف عندها ، فهى ظاهرة لاتثير صعوبة كبيرة ولا تحتمل جدلا كثيرا وتكاد تكون القناعة المشتركة بين كثير ان لم يكن أغلب كتاب الرواية ونقادها على اختلاف مشاربهم الفكرية وانتماءاتهم الاجتماعية . يعترف بها كتاب الرواية البورجوازيون ونقادها الغربيون وينوهون بها كما يلح عليها النقاد الاشتراكيون ويتخذونها منطلقا لتنظيراتهم وتحليلاتهم . يقول (هنرى جيمس) بعد أن يذكر تعريفه المشهور للرواية بانها انطباع شخصى مباشر للحياة « ان المبرر الوحيد لوجود الرواية هو أنها تحاول بالفعل تصوير الحياة . وعندما ترفض هذه المحاولة ، نفس المحاولة التى نراها على لوحة المصور فانها تكون قد وصلت الى حالة غريبــة » (7) .

ويرى (جوزيف كونراد) تلميـذ (هـ. جيمس) وخليفته الطبيعى « أن اى عمل يتطلع باى درجة من التواضــع الــى الوصول الى مرتبة الفن يجب أن يحمل ما يبرر ذلك فى كل سطر من سطوره . أما الفن ذاته فيمكن تعريفه بانه محاولة خالصة النية لايفاء العالم المرئى حقه الى أقصى حد وذلك عن طريق الكشف عن الحقيقة الواحدة المتعددة الجوانب والقائمة خلف كل ناحية من نواحيه . انه محاولة للعثور فى اشكـال هـذا العالم وألوانه » فى ضوئه وفى ظلاله ، فى مظاهر المادة وفـى حقائق الحياة على كل ما هو أساسى ، كل ما هو باق وجوهرى فى كل منها ، على الصفة الوحيدة المضيئة المقنعة ، على حقيقة

وجودها بالذات » (8) ويؤكد كل من فرجينا وولــف ود . هـ. لورانس وبيرسى لبوك و أ. م فرستر هذه العلاقة بصيغ أخرى متفاوتة جاعلين من الرواية قطعة من الحياة أو الحياة ذاتهـــا .

وحين ربط هيجل الرواية بالطبقة البورجوازية الحديثة كان يفكر بالضبط فى المجتمع البورجوازى القائم على الاستغــلال والتفاوت الطبقى وهذا ما برهن عليه لوكاتش فى تحليلاته حول نظرية الروايةودراساته للروايةالواقعية والتاريخية. واذاما تتبعنا آراء وتعليقات مختلف كتاب ونقاد الرواية فى هذا الفن الادبى بالذات نستطيع ان نستخلص منها ثلاثة مبادىء هامة هى : الحرية ـــ الجدية ـــ الواقعية ، تفيدنا الى جــانب المفــاهيم المذكورة المتعلقة بالمضمون فى فهم وتحليل كل نص روائى .

فمبدأ الحرية معناه أن الروائى حر فى اختياره لمواضيع عمله وفى تصويره للواقع بالطريقة التى تروقه دون الزام أو أكراه . وعلى هذا فالحرية هى المقياس الذى ينبغى أن يعتمد عليه الدارس فى محاكمته للكاتب ، بحجة أن الحرية أختيـــار وموقف. والجدية هى الصفة الاولى التى تجعل الباحث يهتم بالعمل الروائى والادبى عموما ، واذا ما أنتفت فقدت الرواية قيمتها واهميتها فى عين القارىء لانها اذ ذاك لا تختلف فى شىء عن الخرافة أو الحكاية الفجة . يقول هـ. جيمس « يجب على الرواية أن تاخذ ذاتها ماخذ الجد لياخذها الجمهور مــاخــذ الجد » (9) .

والواقعية تعنى فيما تعنيه الاقتراب من الشعب والتعبير عن مطامحه وتطلعاته وقيمه الاصيلة . وهى التى تعطى للرواية خصوصيتها ومضمونها الحيوى . لانها المقيــاس الاول لفنيــة الروايــة :

« ان علاقة الرواية بالواقع حصرا هي التي تؤلف خصوصيتها . وهذا نوع أساسي من التمايز ويبدو انه يفصل الرواية عن معظم الانواع التقليدية ، عن المأساة والملهاة والشعر البطولي والرعوي » (10) ان الحرية بمعنى اختيار الموقف الفني والايديولوجي ، والتجدية بمعنى التعبير عن حقائق واحداث تستحق الاهتمام وتثير فضول المتلقي ، والواقعية التي تعني عكس حقائق الواقع الموضوعي هي المبادىء التي يقوم عليها فن الرواية الذي يتميز حسب ما يظهر بالشمول والموضوعية . على أن موضوعية هذا اللون الادبي لا تدل على خلوه من الذاتية . لان الذاتية والموضوعية تنعكسان في الرواية — وفي كل عمل فني — بطريقة جدلية رائعة ومعقدة . فالرواية هي « شكل الرجولة الناضجة » كما يقول لوكاتش وشكلها الخارجي هو اساسا بيوغرافي . انها « شكل المغامرة التي تلائم قيمة الداخل الخاصة . والمضمون هو تاريخ هذه النفس التي تذهب في العالم لكي تتعلم كيف تعرف نفسها وتبحث عن المغامرات لكي تختبر نفسها فيها ، وبواسطة هذا الاختبار تعطي بعدها وتكشف جوهرها الحقيقي . » (11)

يمكننى القول ان ما نستطيع أن نصطلح على تسميته برواية في الادب المغربي المعاصر تنطبق عليه القولة السابقة تمام الانطباق ابتداء من — في الطفولة الى (زمن بين الولادة والحلم) .

د — قضايا المضمون ونماذجه في الرواية المغربية :

ان ارتباط الرواية المغربية بذاتية كاتبها لم يحل دون تعبيرها عن واقع موضوعي ، وبالتالي فهي لا تنهض على تاريخ الفرد وانما تجلى تاريخ الواقع الذي ينعكس في ذات الكاتب

لاننا نلمح عبرها على حداثتها وقلة نماذجهـــا مـــدى التطـــور التاريخى والفكرى الذى نشأ خلال حوالى أربعة عقود ، وهى فترة كافية لاظهار ذلك الفرق بين (فى الطفولة) والنماذج التى ظهرت فى السبعينات : (المرأة والوردة) ، (زمن بين الولادة والحلم) وغيرهمـــا .

فعبد المجيد بن جلون يرصد فى سيرته الذاتية فترة من حياته كما عاشها ببلدة منشستر بانجلترا وفترة أخرى قضاها فى مدينة فاس . وكانت هذه مناسبة بالنسبة اليه لعقد مقارنة بين مظاهر الحياة الحضارية فى اوروبا ممثلة فى انجلترا ومظاهر الانحطاط والتخلف التى تطبع الحياة الاجتمـــاعية فى وطنـــه . ولعله كان يسعى من وراء هذه المقارنة الى تقديم النمـــوذج الحضارى الذى اختاره ليحتذى به مواطنـــوه فى سلوكـــاتهم واخلاقهم ومعاملاتهم الاجتماعية والسياسية ، وكل الامثلة التى ضربها فى روايته عن الجو الذى يسود أسرة آل بترنوس وفى الشارع وحتى مظاهر العلاقات السياسية : حكايته عن جورج الخامس ص 63 — 68 لم تكن اعتباطا لانها جاءت توكيدا لهدف الرواية الفكرى .

على أن (فى الطفولة) ليست سوى رواية تحكى مغامرة صاحبها فى الحياة منذ أن خرج الى العالم وذهب محمولا الى اوروبا فى أعقاب الحرب الاولى . وما يلى ذلك من تنشئة وتردد بين انجلترا والمغرب . وفى هذه السيرة الذاتية كانت السخرية التى تحدث عنها (لوكاتش) الاداة الهامة التى اكتشـــف بهـــا المؤلف الرابطة التى تجمع بين عالم متدهور منحط وبين رغبة الكاتب فى تجاوز واقعه عن طريق تقديم بديل غربى يعد راسبا من رواسب الطفولة . وقد نرى فيها كذلك بداية يقظة الوعى البورجوازى من خلال اتصاله بالغرب أثناء فترة الحماية التى

تحكمت فيها علاقات انتاج رأسمالية عملت البورجوازية التجارية فى المغرب كل ما فى امكانها لاستثمارها واستغلالها لفائدة نموها وتطورها الخاص . ولاشك أن العلاقة مع الغرب ، والتساؤلات المختلفة التى طرحت حول نتائج مثل هذه العلاقة وحول مدى ما يمكن أن تحققه من تقدم بالنسبة لبلد متخلف حديث العهد بتجربة التسيير الذاتى هى نفس القضايا التى عالجتها روايات مغربية اخرى تعتبر ترجمة ذاتية لاصحابها بقدر ما هى تعبير عن حقائق موضوعية لانها سواء عبرت عن فترة تاريخية ماضية او طرحت قضايا اجتماعية وسياسية معينة تعكس موقفا ايديولوجيا يندغم فيه العام والخاص . من الصعب تصنيف هذه الروايات تصنيفا دقيقا يخص مضامينها الفكرية ويعبر فى نفس الوقت عن أساليبها وطرق ادائها الفنية لاختلاف المواضيع التى تناولتها هذه الاعمال ولتفاوت درجات الوعى فيها :

هناك روايات تحصر نفسها فى فترة تاريخية محددة وتعالج قضايا مرتبطة بتاريخ الحركة الوطنية وبالتحولات الناتجة عن الكفاح الوطنى وظروف الحرب الكونية الثانية ومشاكل الاستقلال وهى : الغربة — ودفنا الماضى — جيل الظما ، وهناك مجموعة اخرى تتصدى للواقع الاجتماعى الراهن مباشرة مثل الطيبون المراة والوردة ، زمن بين الحلم والولادة . أما اكسير الحياة ، والمعلم على فقد انفردتا كما سبق القول بشرح آرائهما فى موضوعين خاصين . هذا فضلا عن اختلاف الاهتمامات الفكرية والممارسات الادبية والسياسية لكتابها فما الذى يستطيع ان يجمع بين مفكر ومؤرخ وبين فيلسوف ارتضى الشخصانية الواقعية مذهبا وعقيدة . وما القاسم المشترك بين كاتب وصحفى كرس حياته للعمل السياسى والكتابة فى اثناء الحركة الوطنية وفى عهد الاستقلال وبين أستاذ جامعى احترف التدريس

منذ شبابه . وكيف يلتقى شابان يختلفان فى المزاج فى أسلوب الكتابة وربما فى ممارسة الحياة .

اذا كانت الرواية تجمع بين هؤلاء جميعا من حيث الشكل على الاقل فهناك عدة عوامل تفرق بينهم وفى مقدمتها العـــامل الذاتي وما العامل الذاتى فى مفهومه العلمى المحدد الا الوضـــع الايديولوجى والطبقـــى .

اننا نفترض وفق التحليل السابق لاسس المضمون ، وبناء على المبادىء الثلاثة المذكورة ــ الحرية ــ الجدية ــ الواقعية، ان هذه الروايات ترتبط من حيث المضمون بواقعها الاجتماعى والتاريخي بعلاقة واضحة لا غبار عليها سواء أكان ذلك بوعى من اصحابها او بغير وعى منهم . غير ان هذه الروايات ليست مجرد تعبير عن واقع موضوعى ، انها تعكس أيضا ايديولوجية كل روائي ووضعه الاجتماعى واهتماماته الطبقية لان الجانب الموضوعى فى مضمونها يحتوى فى نفس الوقت على الجانب الذاتي.

وهذا الجانب الاخير يجب أن يؤخذ دوما بعين الاعتبـــار أثناء التحليل فنحن لا نجرد تعريف المضمون من جانبه الموضوعى ولا ننفى عنه الحقيقة الموضوعية عندما نقول ان القصد الفكرى للكاتب وافكاره التى تعبر عقيدته الطبقية هى مضمون انتاجه الفنى لان الواقع الخارجى يجد انعكاسه الصادق فى افكارنـــا ومفاهيمنا وتصوراتنا ولان ادراك الكاتب والانسان عمـــومـــا يعطى حقيقة موضوعية ويعبر عنها . فالمضمون الموضوعـــى لوجهات نظر الروائى وفكاره لا ياتى من خارج اطـــار الوعـــى بالواقع الخارجى بل يؤكد وجود الموضوعى فى الذاتى نفسه . فمهما اعتبرنا هذه الروايات فهما ايديولوجيا للواقع فانها تحمل بدرجة أو بأخرى بذور الحقيقة الموضوعية وتعبر عنها . انها أفكار هؤلاء الروائيين ومشاعرهم ونظراتهم الجمالية مصاغة فى شكل فنى قائم على التنظيم والبنـــاء اى اسلوب التعبير عـــن

المضمون ، وهى بالتالى تؤكد وحدة الموضوعى والذاتى وتعكس فهم هؤلاء الكتاب للواقع الموضوعى وتبرز من ثم تقييمهم لـــه وموقفهم منه ، ومع ذلك فهذه الروايات لا تعكس لنا الواقـــع الواقع المغربى او بعضا من مراحله التاريخية فى كل ارتباطاتها واسسها وغناها الذى لا ينفذ ، وانما تعكسه من وجهة نظـــر الكاتب وبحسب انتمائه المادى وقناعته الفكرية ، فالماضى الذى صوره غلاب فى روايته ليس هو الماضى الحقيقى ولكنه مـــاض الحركة الوطنية وماض اسرة الحاج محمد كما فهمه وبينه غلاب وكذلك الواقع التاريخى فى (الغربة) ، ومشكلة المثقفين لم تطرح فى (جيل الظما) بالكيفية التى قرأناها فى هذه الرواية الا أن لحبابى أراد ذلك ، فهؤلاء جميعا عندما يعبرون عن فهم لواقعهم الاجتماعى ويعكسونه فى أعمالهم انما ينطلقون من موقف تقييمى للظواهر الاجتماعية تتحكم فيه مصلحة الطبقة والافراد ، وقـــد كان النظر الى كل ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية تبعـــا اصلتها بالمصلحة الطبقية مبدءا عاما لكل تقييم اجتماعى يعكسه الأمـــــن ،

وعلى ذلك فالحرية التى نتحدث عنها فى الرواية ليســـت حرية مطلقة غير محددة ، انها حرية اختيار يتحكم فيه الموقف الطبقى والفكرى للكاتب الروائى ، ويمكن أن نقول الشىء ذاته عن الجدية والواقعية ، وكل واحد من الروائيين المغاربة عندما يعرض علينا مصائر ابطاله ويصور لنا الظروف الاجتماعية التى تحكمت فى صياغة وتوجيه مصائر شخصياته يعطينا فى نفس الوقت تقييما محددا لكافة الجوانب الحياتية فى عمله الفنى انطلاقا من موقف ابطاله ، ويكشف من ثم عن مجموعة المقاييس التى يرتكز عليها فى تقييمه ، وتقييمه شأنه شأن كل تقييم يعبر عن ترافق الظواهر المقيمة مع مصلحة الشخصية الاجتماعية للبطل الذى تصلح اهتماماته ومطالبه البشرية ورغباته ... مقياسا

أوليا للتقييم بالنسبة للكاتب . فهذا الاخير يجسد دوما مقاييس فى أبطاله .

سبقت الاشارة الى أن كثيرا من النماذج الروائية المغربية هى سير ذاتية لاصحابها الغربة ـ جيل الظمأ ـ دفنا الماضى ـ الطيبون ـ المرآة والوردة ومع ذلك ليس المهم أن نرى فى شخصية ادريس بطل (الغربة) المؤلف ذاته ، أن يكون عبد الرحمن فى (دفنا الماضى) هو غلاب وأن يمثل ادريس فى رواية لحبابى الكاتب الخ .. وانما المهم الموقف الذى يتبناه كل واحد من هؤلاء الابطال والمصير الذى يؤول اليه بسبب الظروف الاجتماعية والقوانين والانظمة . ولو تقصينا موقف بطل الغربة لرأيناه فى الاخير يختار العودة الى البلد لا ليواصل المهمة التى بدأها (شعيب) بل ليقف شاهدا آسفا على خيانة التاريخ ، وكان هذا هو الموقف الملائم الذى ينبغى أن يتخذه مثقف فجع فى آماله عندما رأى بلاده تفشل فى تحقيق مطامحها الحقيقية وتكافىء أبناءها المخلصين بعقوق سافر ولا مبالاة مهينة . اختار (ادريس) الحب ومناجاة الغرب كتعويض لفشله الفكرى مع أن العروى يقدم فى نفس النص نموذجا ثوريا حقيقيا يقدم البديل البديل للبطل السلبى الخانع . اضافة الى أنه يطرح واقع ما بعد الاستقلال برؤية متقدمة وعميقة تتجاوز بكثير الرؤى التى تتخلل (دفنا الماضى) و (جيل الظمأ) . وهما روايتان كتبهما مثقفان ينتميان الى جيل العروى . يقول مؤلف الغربة ((اننى سواء كنت مؤرخا أو فيلسوفا سياسيا فانى أعتبر تفكيرى تطويرا ونتاجا للحركة الوطنية ، أرد لها بعض ما أعطتنى شخصيا)). هكذا يعترف العروى بفضل الحركة الوطنية عليه . أما غلاب وهو من مثقفى الحركة الوطنية ومنظريها فهو لا يرغب فى تطوير نفسه ومواقفه كما يفعل العروى بل يعتبر أن الحركة الوطنية هى الفكرة المطلقة التى حققت سيادتها وادركت غايتها بعد

الاستقلال . فى (دفنا الماضى) يخصص غلاب نصـف روايتـه الحديث عن وقائع ومشاكل اجتماعية تتعلق بعائلة ج محمد : اختطاف الخادمات ، دار بن كيران النخاس ، حفلة كناوة ، ازيجات البورجوازية .. لا علاقة لها بالموضوع الذى تحدث عنه فى القسم الثانى الذى يغلب عليه الجانب السياسى . وحتى عندما يتعرض لمشكلات السياسية فى هذا القسم الاخير يضرب صفحا عن القضايا الجوهرية ويشوه كثيرا من الحقائق الواقعية والتاريخية . ان القارىء يدرك بالطبع أن هذا العمل ان هو الا رواية ويدرك كذلك أن ما يخفيه النص هو ما كان ينبغى تبيانه . وحديث غلاب نفسه بما وراء الحدث . وقد كان هم غـلاب ان يبرز فقط ما كان يراه هو ايجابيا ومطابقا لموقفـه الاجتماعى ، أما تناقضات الحركة الوطنية أما الابطال الحقيقيون الذين انجبتهم المعركة ضد المستعمر ، أما الافاق الرحبة والمطامح الواسعة التى تكونت الحركة من اجلها ، كل هذا لا يهم المؤلف فى شىء . وحين يتعرض لاحداث المقاومة يكون ذلك من خلال الشخصيات التى وظفها بما تحمله من رؤية وموقف يعبران عن افكار المؤلف واختياره . ان عبد الرحمن وعبد العزيز مثـلا يحملان بعض ملامح البطل الايجابى ولكن الرواية تنتهى بموت الماضى معانة ميلاد مرحلة جديدة تتقدمها تباشير الاستقلال ، تكون هى نهاية التاريخ . اليس غياب الافق فى دفنا المـاضى دايلا على رؤية تتمنى توقف التاريخ وتقرر تحقـق الاهـداف النهائية فى ظل اسلم نظام ممكن . الم يرتد غلاب الى الماضى ثانية فى (المعلم على) ليعالج موضوعا سياسيا يدافع فيه عن انجازات الحركة الوطنية بقيادة البورجوازية فى ميدان التنظيم النقابى ويبرز ديناميكية اعضائها وحنكتهم على المستويين السياسى والعملى . لقد حصر غلاب تفكيره فى التاريخ الوطنى وكرس نفسه الدفاع عن منظورات طبقة بعينها وبهذا دلل على نوع من

ضيق الافق واساءة فهم للتاريخ وحركة الواقع . اراد غلاب ان تكون روايته تقليداً كثلاثية نجيب محفوظ ولكنه اخفق فـــى تناول موضوعه بالحياد الايجابى الكافى والرؤية الجدلية التى تميز تفكير نجيب محفوظ فى بعض أعماله الهامة .

وحين ناقش لحبابى قضية الثقافة لم يجد بدا من التعبير عن ذاته والكشف عن أفكاره وثقافته قبل — بل دون — اى تناول موضوعى للقضية التى اثارها . لهذا كانت روايته مجرد حديث فكرى مليء بالمواقف المصطنعة والمفــاجــآت المفتعــزة والحذلقة الفارغة . و (جيل الظما) تعبر هى الاخرى عــــن مرحلة فى تاريخ الرواية المغربية امتازت بالالتباس وتضارب الاراء واخفاقات السياسية استغلتها البورجوازية لاشاعة مزيد مـــن البلبلة والياس عن طريق تمرير أفكار غربية مضللة والتــركيـــز على تفاهات فكرية تجذب الانظار عن المشاكل الحقيقية .

عاد لحبابى من اوربا مشبعا بمذهب الشخصانية ملمـــا بالاتجاهات الفكرية البورجوازية (برجسونية وغيرهـــا ...) ليجد نفسه فى مجتمع متخلف لا يولى كبير عناية للثقافة فظهر فيه هو كنبى مجهول يدعو الى الثقافة وينوه بالنخبة ، حاملا لواء التواصل والانفتاح مناضلا ضد سوء التفاهم والنشر . هكذا زج ببطل روايته (ادريس) فى واقعه الاجتماعى ليخرجه من قوقعة الذات والانطوائية الجامدة ويجعله يتفتح على الاخرين ويمارس وجوده من خلال علاقاته الاجتماعية . وعلى الرغم من كل هذا لم يبرهن لحبابى عن رغبة متواضعة فى المعرفة واكتشاف حقائق الحياة بمثل ما برهن حقا عن استعلاء ثقافى وسخرية بمن يحلو له أن يسميهم أشباه المثقفين من بنى وطنه . ولان الشخصانية الواقعية كانت تقف بكل ثقلها فى خلفية القص لا يخرج القارىء لهذه الرواية باية فكرة حقيقية عن الثقافة والمثقفين ولا يستشف

الملامح الواضحة للمثقف النموذجي الثوري اللهم الا اذا اعتبرنا شخصية البطل (ادريس) النموذج الذى يقترحه المؤلف ، وهو على اية حال ليس النموذج الحقيقى المطلوب لان الثقافة ليست شقشقة وحذلقة بل ممارسة واعية وارتباطا وثيقا بالجمـــوع المحرومة والقوى العاملة ، وهذه مواقف وافكار لا نعثر على أية علامة تشير اليها فى ((جيل الظما)) .

من حق الروائى ان يقترح الحلول التى يراها كفيلة باخراج مجتمعه من تخلفه وبتحقيق الانتصار على مشاكله وهذا ما يمكن أن يكون لحبابى ، قد فكر فيه بحسن نية عندما دعا الى التوعية والتربية الفكرية مقللا على اهمية التشخص والتشخصانية ، ولكن من حق القارىء كذلك أن يفاضل بين الحلول المقترحة ويختار منها ما يعتقد حقا أنه الحل الجذرى والاختيار النـــاجع لكـــافة المعضلات . اما كيف يكون هذا الاختيار الامثل ولصالح من ، ومامدى اهمية التقدم الذى سيضمن تحقيقه وما الهدف منه ، فهذه هى الاسئلة التى لم تجب عنها (جيل الظما) ولم تهتم حتى بطرحها وان كانت اجابت عنها بطريقة غير مباشرة لا تخفى على المتلقى الواعى .

لم يثبت قط أن طالب الكاتب من القارىء او الناقد تقديم البرهان على قراءة أثره أو دراسته بحسن نية وبدون مسبقات فكرية لانه ان فعل لن يلقى استجابة ولا تصديقا من احد . الا أن النقد مطالب بتبرير احكامه وتحديد مقاييسه .

لذلك ارى من واجبى هنا أن ابرر كل ما قلته عن الروايات السابقة لانى لا اريد أن يرى فيه أصحابها تحاملا او حيفا . وما الى هذا قصدت ولست له طالبا . لقد حاولت فقط ان اعبر عن راى قارىء مهتم بادب بلاده يرغب ما وسعه الجهد فى ان يكون موضوعيا فى احكامه وتقييماته . والحق أن ناقد الرواية

يجد نفسه دوما أمام الحاجة الى تحديد قيمة العمل الادبي الفكرية فى المجرى التاريخي لتطور المجتمع . هذه المشكلة تواجهه باستمرار وبشكل حتمى لان الادب كشكل خاص من أشكال الايديولوجيا يضطلع بمهمة اجتماعية معقدة . ولهذا لا يمكن ان يكون ثمة تقييم موضوعى وشامل دون معاينة العمل الفني فى وظيفته الاجتماعية التربوية وبدون تحديد الرصيد الفكرى الذى يحمله . من المعروف فى هذا المجال أننا لا نحكم على القيمة الفكرية للرواية من وجهة نظر مقاييس الكاتب الموضوعية بل نحكم عليها تبعا للدور الموضوعى الذى يؤديه العمل المذكور فى الحياة الاجتماعية أى طبقا لمساهمته فى دفع وتقوية نضال قوى المجتمع التقدمية الرائدة ضد قوى الرجعية الزائلة . فالعمل الادبي ايجابى بمقدار ما ينقله من رصيد فكرى ايجابى الى وعى العصر الاجتماعى وبمقدار ما يوفره من مضمون فكرى يستجيب لحاجات الموضوعية للتطور الاجتماعى . مثل هذه الخصائص لا تتحقق الا فى الاعمال الادبية التى تعكس الواقع بكيفية صحيحة وتملك استقلالها المحدد وفرادتها النوعية ومضمونها الفكرى الموضوعى غير المرتبط بالذات أى بالكاتب نفسه . وباعتقادى ان عنصر الصدق وهو دائما نسبى غير متوفر بالمعنى الذى حددته فى كثير من رواياتنا لذلك فشلت حتى الان فى تقديم النموذج الايجابى والبطل الحقيقى وبقيت مجرد تعبير عن رؤى وأفكار لم تتعمق الواقع الموضوعى ولم تعكسه بكيفية مقنعة لذا فهى أقرب ما تكون الى السيرة الذاتية منها الى الرواية الحقيقية . لان هذه الاخيرة تتميز كما مر بنا بالشمولية والموضوعية سواء فى معالجتها لواقع النفس أو لواقع الحياة . وفى النماذج الروائية المغربية التى اتكات على التاريخ مثل الغربة ، دفنا الماضى — المعلم على ، جيل الظما والطيبون الى حدما ، نفتقد الصفات المميزة للرواية الحقيقية . صحيح أننا نلاحظ وجود

مظهرين اساسيين للعمل الروائى يتجلى اولهما فى المستوى التاريخى والثانى فى مستوى الحديث الشيء الذى يؤكد فعلا عودة الروائى الى واقع واحداث وقعت بالفعل كما يتحدث عن شخصيات تشبه أو تشير الى شخصيات حقيقية (ادريس ، شعيب .. فى الغربة ، عبد الرحمن ، عبد العزيز .. فى دفنا الماضى ، قاسم عزوز فى الطيبون ... احداث الحركة الوطنية والمقاومة - الواقع الطلابى - النضال النقابى والسياسى ...) غير ان التاريخ فى (دفنا الماضى) خاصة يظل هو التاريخ الطبيعى المعروف الذى كان من الممكن أن يحكى بطرق اخرى غير الرواية . فغلاب سواء فى هذه الرواية او فى (المعلم على) لم يرتفع بالتاريخ الى المستوى الروائى المطلوب بل تركه يجرى فى مستوى الوقائع نفسها يتلقى ويحكى من طرف شخص واحد ومن وجهة نظر واحدة هى وجهة نظر المؤلف .

وعلى مستوى الحديث الروائى لم تتجاوز روايتا غلاب ورواية جيل الظما كونها مجرد سرد ، خطاب تتخلله مونولوجات وحوارات يحكيه راو واحد هو بطل الرواية الذى يقوم مقام الكاتب فى كثير من الاحيان .

ان كل رواية تلزم نفسها بالتاريخ والتاريخ السياسى خاصة مطالبة بالموضوعية لانها تكون اذ ذاك قد الزمت نفسها بعكس واقع موضوعى يستطيع القارىء أن يتحقق من صدقه ، وعليه فللقارىء كل الحق فى مقاضاتها بحسب جديتها أو عدمها ، وتبعا لواقعيتها أو زيفها . واذا صرفنا النظر عن هذه النواقص اعترضنا جانب سلبى آخر يتمثل فى الزوائد والتفصيلات والاستطرادات التى اغرقنا بها بعض كتابنا . وكلنا يتذكر الصفحات الطويلة التى كتبت بدون طائل فى دفنا الماضى (فى القسم الاول خاصة) وفى (جيل الظما)والتى ليست على اية

حال ذات طبيعية تاكيدية ولا تخدم اطلاقا مـا يسميه هنـرى جيمس (بالكثافة النوعية) فى النص • وفيما يركز غلاب علـى المظهر السياسى للتاريخ من خلال تاكيده المستمر على فعـالية الوعى البورجوازى واهمية النخبة ، يولى لحبابى عنايته للعنصر الشخصى فى (جيل الظما) ويشحن المضمون الفلسفى لروايته بأفكار تجريدية تتعلق بالانسان (لغز الطفل — دور الفرد فى التاريخ والحضارة) وبمسالة التواصل وعلاقة الفرد بالمجتمع وما ينتج عنها من سوء تفاهم ومشاكل • وتنتهى الرواية وكانها كتبت لتقول لنا فقط أن الثقافة شىء ايجابى وعلى الفرد المثقف أن يندمج فى مجتمعه كى لا يبقى معزولا •

ولعل ربيع مبارك كان يفكر هو الاخر فى نفس هذا الموضوع عندما كتب — الطيبون — فهو يطرح قضية الطالب الجامعى الضائع الذى وجد نفسه ملقى فى مجتمع اضطربت فيه القيـم وتعددت الصراعات والخلافات يحتوى انماطا مختلفة ومتناقضة من الشخصيات والمواقف • أن (قاسم) فى الرواية يبدو انانيا ومعقدا يحس بكبريائه ويدرك أنه يشترك مع غنام فى طبيعة داخلية أصيلة ولكنه يريد أن يعمل ضد هذه الطبيعة ، وعليه لذلك أن يندمج فى الاخرين ويحدد موقفه من واقعه ومن صراعاته• يعرف أن غنام وصولى وأن الادريسى وعزوز يمثلان على النقيض منه (غنام) نموذج المثقف الملتزم والطالب الجامعى المناضل ، وعليه أن يختار احد الموقفين ، أما جانب الانتهازية والاثراء واما الى جانب الممارسة الثورية والمبادىء الديمقراطية • أنه اختيار صعب لم يستطع (قاسم) ان يحسمه الا بعد أن مر بعدة تجارب وخبر عدة نماذج من الشخصيات وتردد بين مجموعة مثل (علاقة بهنية ، لقاؤه بالوعدودى ثم باستاذه القديم النورى، التجربة الصوفية •••) لقد اقتنع الان بصحة موقف الادريسى وعزوز وعليه الان أن يقرر الارتباط بهما وبالقيم والاهداف التى

يدافعان عنها ويعملان على نشرها ، لهذا « تحرك فى الزحام والرؤوس تتحرك على مد البصر ، فى انحدار الدرب الطويل أمامه . وخيل اليه أنه يستأنس بشىء فى الرؤوس والاكتاف . وحدق : رأس عزوز وكتفاه فى الزحام الى جانب رأس أشعث كانه الادريسى . ودافع (قاسم) فى الزحام يتحقق من صدق خياله ، واقترب منهما وابعدته حركة الزحام من جديد ...» ص 187 .

والموقف المناهض لسير الواقع فى تجربته الحالية هو المضمون الفكرى لرواية محمد زفزاف الثانية . سبق لهذا الكاتب أن ألف رواية بسيطة كانت عبارة عن مذكرات طالب تص فيها ذكرياته الجامعية وتحدث عن زملائه وعلاقاته الاجتماعية والجنسية خاصة . وفيها يتجلى تأثره بالوجودية وفلسفة العبث والضياع . وعلى الرغم من طغيان عناصر السيرة الذاتية فيها فهى تحمل جوانب موضوعية بما عكسته من أجواء اجتماعية (الحياة الجامعية ، الاضرابات ..) كان (بومهدى) وهو المؤلف يقف منها موقف اللامبالاة ، ويتعامل معها من موقع اللامنتمى ، هذا على الاقل ما يمكن ان يفهم من ظاهر النص اذ لربما كان زفزاف يخفى ضيقا شديداً بواقعه استطاع أن يكظمه الى حين بين (ارصفة وجدران) وطنه ثم سرعان ما انفجر صرخة مدوية اطلقها جهارا فى (المرأة والوردة) معلنا بها فراره من واقع السيطرة والاستغلال الى عالم الغرب المسحور . ومهما يكن تأويلنا لمفهوم الرحلة فى النص ، وسواء اعتبرناها حقيقة روائية او وهما رومانتيكيا فهى طبعا ذات دلالة واقعية موضوعية تكشف نوعية العلاقة التى تربط بطل الرواية بواقعه وتحدد بالتالى موقف المؤلف من مجمل علاقاته الاجتماعية. وما من شك فى أن هذه الرواية تبرز تحولا كبيرا فى موقف بطلها بالقياس الى موقف (بومهدي) فى (ارصفة وجدران) وربما

بالنسبة لموقف أبطال روايات خرى سبقتها مثل (الغربة) و (الطيبون) وهذا أمر طبيعي ووارد نظرا للفارق الزماني . أما أن تكون تجذيرا لمضمون غيرها من الروايات المغربية ، وهذا هو المفروض فيها فعلا بحكم حداثتها على الاقل فمسالة من المبالغة الاقرار بها خصوصا وأن ابطل فى كلتا الروايتين لايخرج فى ممارساته وانشغالاته عن نطاق الجنس والخمرة والحلم بالاثراء والتفكير فى الغرب البورجوازى .

هل استطاعت النماذج الروائية التى ظهرت مؤخرا أن تحقق رؤية متقدمة وتجسد فى مضمونها حركة الوعى الاجتماعى المتنامى ، هل كانت فى مستوى التحولات الواقعية وعبرت عن الحقيقة الموضوعية بما يخدم تطورها التاريخى ويشرع آفاق مستقبلها .

مرة أخرى ، علينا أن نتريث فى اصدار الاحكام وأن نتعامل بنوع من الحذر مع تجارب لا يزال أصحابها فى بداية الطريق . فما كان الهدف من أى بحث موضوعى ليتجه الى اغتيال مبادرات فنية ومحاولات روائية لا يشك أحد فى أنها تجرى وفق أطيب النيات . ومع ذلك فهى لا تستطيع أن تنكر صلتها بواقعها الاجتماعى وبتناقضاته الحية مهما غامرت فى التجريب وتوغلت فى الحداثة . هذه هى الحقيقة الاولى التى تفرض نفسها على الكاتب والمتلقى على حد سواء . وهى من البداهة بحيث لا تستدعى أى نقاش لكن مثل هذه البديهيات تحتاج منا دوما الى اعادة النظر وتمحيص جديد . ومسالة الاسلوب بالذات من من القضايا التى تعيدنا مجددا الى صميم علاقة الفن بالواقع ، والى ما يتفرع عنها من مشاكل الاصالة والمعاصرة والحداثة ... ومن الواضح ان هذا هو المحور الاساسى الذى تحوم حوله كتابات روائية وقصصية وشعرية ينعتها اصحابها بانها جديدة

ويتعلق الامر هنا بصورة خاصة بكتابات المدينى ومحمد عــز الدين التازى واحمد بوزفور ومصطفى المسناوى . أن المدينى على الخصوص لا يخفى تبنيه لهذا الاتجاه عندما يدافع بقــوة وحرارة عن مبدأ التميز وفرادة الاسلوب . اذ الشىء المهم فى اعتباره بالنسبة للمبدع ليس ما يجعل منه شبيها بالاخرين ويقربه منهم على صعيد الابداع بل ما يكفل له الاختلاف عنهم ويضمن له أصالته . ومن المؤكد أن هذا الاعتقاد هو السبب الــذى ادى بالمدينى الى رفض الانصياع للتراث وللتقاليد الفنية القديمة. ومن اجل تحقيق هذا الهدف عمد فى روايته (زمن بين الولادة والحلم) الى نهج طريقة قريبة جدا من طريقة (فيليب سولير) وبعض الكتاب الفرنسيين المعــاصرين فتخلــى عن الشخصية الروائية واطلق العنان للذاكرة تهرق انسياباتها وتغدق مخزوناتها عن الماضى والحاضر تكيل الشتائم وتدين بلا هــوادة او تــرو التاريخ والتراث والحضارة . انه لا يرى فائدة من تحديد موضوع النص مادام يعتقد انه يتحدث عن شىء يعرفه جدا ويدينه بحدة ولانه يفترض أن هذا هو موقف الغالبية العظمى فهو يريد ان يكون مباشرا وبدون حيل فنية ، يرفع صوته عاليا ويصيح كما لو كان يحمل لافتة احتجاج يتظاهر بها فى الشارع ، يؤكد بها موقفه من الواقع بارتباطاته التاريخية والحضارية وبعلاقــاته الاستغلالية الراهنة . وطبعا فان كتابات تزعم لنفسها قيادة تيار التجديد وتظهر محملة بطاقات العنف والانفجار تدفع القارىء الى التساؤل عن مدى قدرتها على تحقيــق وظيفتهــا بالوســائل والاسلوب المستخدمين . ثم ما عسى ان يكون مضمون هــذه النصوص التى تعمل ضد التقاليد الفنية وتسعى الى تحطيــم الاشكال والتقنيات الروائية والادبية المالوفة بهدف تكوين خطها الخاص وارساء أسس اخرى جديدة اذا لم تكن منطلقات التجديد فيها صادرة عن موقف فكرى ووعى جاد وشامل باساسيات

التغيير . انه لمن العبث انكار ما للجانب الموضوعي من تأثير على هذه المغامرات الجديدة التي كانت في الاساس استجابة لتبدلات الموقف الاجتماعي العام ولتطور الحساسية عند الطبقة الوسطى وخاصة في اوساط مثقفيها ابتداء من منتصف الستينات بلورتها بارهاف وعنف بالغين كتابات عبد اللطيف اللعبي (روايته (العين والليل)وقصص محمد برادة وأبو يوسف طه الساخرة، الا ان العامل الذاتي في (زمن بين الولادة والحلم) يتجاوز حدود الموضوعية عندما يقع التركيز على شكلية النص بطريقة مبالغ فيها على حساب قيم الموضوع الواقعية والاستيعاب الفكري لجمل عناصره وتناقضاته . وهنا يمكن للمرء ان يثير السؤال عما اذا كان من الاحسن كتابة الرواية باسلوب مقنع اقل صخبا وأكثر فعالية ، فلربما كان الدفاع عن الاهداف بطريقة هادئة علمية وواقعية أقرب للاقناع وأسرع في تحقيق النتائج . ومن ذا الذي يرضى لغدارات نارية تطلقها كلمات عنيفة ان تخطيء هدفها وتطيش هباء في الهواء ، لا لسبب سوى انها لم تحسن تسديد الرمية . أما الرفض وحده فهو لا يكفي ما لم نعمل على فهم رفضه أو تغييره .

وهكذا يمكن القول أن هذه الروايات تعبر بمضمونها الفكري عن مناهج فكرية مختلفة في تقاربها داخل اطار الاشكالية العامة للادب المغربي المعاصر . صحيح أنها لا تبين بوضوح كامل الموقف الفكري الشامل لكتابها ، اذ « ليس من المحتم أن يكشف (12) الكاتب في كل عمل من اعماله كافة جوانب فهمه للظواهر المصورة وتقييمه لها بكيفية موضوعية صرف لان الروائي كثيرا ما يعبر عن الظواهر ذات الصلة الحميمة بذاته بينما تظل القضايا الموضوعية خارج حدود اهتمامه الفكري ولا تدخل في تكوين مضمونه عمله الادبي ، اذ يبرز فقط الجوانب التي تبدو مهمة

بالنسبة اليه لحظة معينة بالذات . اما عقيدة الكاتب او موقفه الايديولوجى فهو لايتوافق دائما مع المضمون الفكرى لعمله الادبى الا بقدر ما يظهر الحاجة على ظاهرة اجتماعية او فكرية معينة كالجانب السياسى فى روايات غلاب والجانب الفلسفى فى روايات لحبابى والذاتى فى اعمال زفزاف والمدينى على من ان الموقف الايديـولـوجـى يشكل جزءا من الحقيقة الموضـوعية . وهنا بالضبط تطرح قضية الواقعية الحقيقية والكتابات الـزائفـة والاصلية . والكتابات الزائفة (حتى لا نقول روايات) هى التى تصر على مناقضة منطق الحياة الموضوعى بالحاحها على الاراء الاجتماعية والسياسية للمؤلف ارضاء لرغبة شخصية وتعنـت ذاتى فى الوقت الذى يدعى انه ينطلق من تصور جمالى واقعى . ومن المعروف ان الدستور الجمالى يحدد دائما الموقف الابداعى لكل كاتب غير ان « المعتقدات الجمالية ليست ضمانة على ان الكاتب لا يقع فى اخطاء تصوراته . انه يمكن ان يؤمن كل الايمان بانه يعبر عن الحقيقة ولكنه فى الوقت نفسه انما يعبر عن تصوره الخاص لهذه الظاهرة او تلك من ظواهر الحياة ». (13) وليس من المبالغة ان نقول ان كثيرا من النماذج الروائية فى المغرب وفى بلدان عربية اخرى سقطت فى هذا الوهم بالذات عندما ادعت انها تصوغ مضامينها الفكرية من الحقيقة الواقعية ، لان الجانب الواقعى كثيرا ما يبدو مشوها ومتحجبا خلف الرؤية الذاتيـة والعقيدة الفكرية . ولهذا فهى ليست واقعية الا بمعنى سطحى وزائف . اما الواقعيـــة الحق فهى عدوة للفكرة الكـــاذبة (14) والواقعية الصحيحة لا تتحقق الا بالالتزام المطلق بصدق الحياة وبالانطلاق من موقف علمى صحيح يوفر للكاتب حريـــة العمـــل وامكانية التغلغل فى مسارب الحياة كما يمنحه فرصه قليلة للخطأ.

لقد كتب لحبابى عن معجزة العلم (اكسير الحياة) وكتب

ربيع مبارك عن حرب اكتوبر 73 ولكن الادب ليس (مناسبة) والمضمون ليس صاغة شكلية تتم عمداً بمجرد توفر رغبة الكاتب الذاتية ولكنها تصاغ قبل كل شيء بقوة شخصيات الكاتب وبقوة مادة الحياة الموجهة للادب ، والواقعية الاصيلة المتحكمة فيـــه والتى لا تتيح فرصة التعبير عن افكار غير حقيقية . ولا اريد هنا أن أناقش مشكلة الفرق بين ما يريد أن يقوله العمل الادبى وبين ما قاله بواسطة أبطال الرواية مثلا لانها ذريعة واهية ، وهى على اية حال موضوع آخر .

اقتصرت لحد الآن على تحليل نمـــوذج واحـــد من الادب العربى المعاصر لسببين الاول هو ان مشكلات المضمون تكـــاد تكون واحدة فى الادب العربى المعاصر كله بحكم تماثل او تطابق الظروف الموضوعية التى تعيشها البلدان العربية ، والثانى هو كون الادب المغربى الحديث غير معروف على نطاق وسع فأحببت أن أعطى بهذه المناسبة نظرة ولو جزئية عنه . ولذلك فأنا أعتبر ان الملاحظات والافكار الواردة هنا تنسحب جملة وتفصيلا على الرواية العربية عامة . وأتذكر هنا أن الرواية مهما كان موضوعها تاريخيا كروايات نجيب محفوظ الاولى أو اجتماعيـــا كثلاثيته ، وكروايات يوسف ادريس (الحرام) وفتحى غانم ، واجتماعيـــا سياسيا مثل مضمون روايات الربيعى (الوشـــم ، الانهـــار ، القمر والاسوار) وسواء تعلق بواقع الوطن الاقليمى وتحولاته السياسية الفكرية والاجتماعية كما هو لشأن فى ميرامار ، واللص والكلاب ام تعرض لموضوع الثورة كرواية نجمة والتضال كروايات حنامنيه أو عالجت واقع القمع (تلك الرائحة) والنكسة (الرواية الجديدة فى مصر مثلا) فانها تظل ذلك النوع الادبى الذى يعكس بشكل مباشر واقرب الى الموضوعية تحولات الواقـــع العربـــى المعاصر وما يصطرع فيه من تيارات ورؤى وايديولوجيات . ان

مضامين الرواية العربية خصبة ومتنوعة بخصوبة وتنوع واقع الحياة الاجتماعية العربية . وهى عندما تمتح من تاريخ العرب ومن تاريخ الحركات الوطنية خاصة وحين تستمد من الاحداث كالحرب مثلا ومأساة فلسطين ثم لبنان انما تواكب تطور الواقع الاجتماعى والفكر العربى وتعبر عنه فى نفس الوقت بوعى يتفاوت من روائى لاخر . ونوعية الوعى هذا هى المسألة الهامة بالنسبة للمضمون . واذا كانت الرواية العربية تميزت حتى الآن بسيطرة الوعى البورجوازى فلنا أن نعترف أنه قد بات من واجبنا العمل على تجذير الوعى الثورى والرؤية العمالية فى هذا الشكل الغنى وفى بقية الوان التعبير الادبية حتى يخرج الادب العربى من دائرة الاجترار ويتخلص من مشكلاته المتعددة التى هى فى الواقع مشكلات طبقات بورجوازية ، ومشكلات سيطرة وعلاقات اجتماعية معقدة قبل أن تكن مشكلات فنية وادبية .

الاشـــــارات و الهـــوامـــش :

1 ـــ الواقعية الاشتراكية : المنهج والاسلوب . ى. غروموف (دار ابن خلدون) .

2 ـــ المرجـــع الســابـــق . ص 30.

3 ـــ فى الفن والادب ـــ لينين ـــ الطبعة العربية دمشق 1972 ص 18. ج1.

4 ـــ الواقعية الاشتراكية . ص 15 .

5 ـــ الفن والادب فى ضوء الواقعية ص 14 .

6 ـــ نفس المرجـــع ص 18 .

7 ـــ نظرية الرواية فى الادب الانجليزى الحديث . ترجمة وتقديم د. أ. بطرس سمعان ص 72 .

8 ـــ 9 ـــ نفس المـــرجـــع.

10 ـــ مقالة فى النقد . غراهام هو . ترجمة محى الدين صبحى ص 136 .

11 ـــ نظرية الرواية ـــ ج. لوكاتش . (بالفرنسية)

12 ـــ مشكـــلات المضمـــون والشكـــل فى العمـــل الادبـــى : أ.فينوغرادوف ص 76 .

13 ـــ نفس المـــرجـــع ص 93

14 ـــ نفس المـــرجـــع ص 94

لست متفقا ياسو لجنستين (2)

بقلم : الان بوسكى

ترجمة : د. حسن المنيعى

اريد ان أتحدث قليلا عن الحياة فى بلدك وأؤكد لك بانها تجذبنى باعتدال . لقد صار الرأى العام عندكم مكموما منذ زمن طويل . فهناك نكتة قديمة تقول بانه لاتوجد حقيقة (برافدا) فى الاخبار (ايزفستيا) ولا أخبار فى الحقيقة ، ذلك أن محتويات جرائدكم تقوم على تفسير بعضها للآخر ، وأن لحكامكم كامل الصلاحية فى أن يجردوكم من المدارك البديهية أو الخاصة عندما تذاع عليكم ، وذلك اما بتحريفها او باعطائها تاويلا يغاير الواقع، بحيث ان الحقيقة فى شكلها الغربى قد فسحت المجال لحقيقة نفعية وذلك بطريقة جد مباشرة : الا وهى الدعاية . نحن لا نلاحظ وجود شجرة : وانما نلقحها لتكون نافعة . أنتم تعرفون هذا — ولا شىء غيره — وهو انهم يقررون ما يلزمكم علمه . اما عن التفكير ، فانهم يفكرون بدلا عنكم . وفى هذا المجال فانهم لايتركون لكم الا حرية الشعور ببعض الصدمات الناتجة عن الحقائق التى يلطمونكم بها ، والتى تكون اما مبتورة او مجردة من مضمونها . ولعل ذلك هى الوسيلة الوحيدة التى تصونكم

عن الوقوع فى الفوضى ، والتنافر والانحلال . فلولا الضغط ، هل كنتم ستصبحون القوة الثانية فى العالم ؟ واذا لم تكونوا تلك تلك القوة الثانية ، فكم سيلزمكم من القرون لكى تفرضوا أصالتكم على العالم ؟ ان هدفا كهذا يتطلب التضحية بالرجال ، واراقة الدماء ، وابادة الاجسام باقل مما حدث ذلك أيام عهود الطغيان ، والكمونة ، وغزو الجزء الغربى من أمريكا ، ثم الحرب الاهلية التى اندلعت فى هذا البلد .

* * *

انهم يخفون عنكم بعض الاحداث . فأنتم لاتقراون قائمة طيران النشل ، ولا تتذاكرون حول عدد الطائرات التى تحطمت على الارض نتيجة تقنية صدفوية ، ولا تملكون الوسائل التى تخول لكم الاسترخاء فوق رمال شواطىء « كريمى » عندما يمن لكم ذلك . فغرفة واحدة يسكنها أربعة أفراد ، وخمس أسر تتقاسم حماما ، وقطعة واحدة من الطماطم الطرية تساوى فى شهر يناير ثمن « جاكيتة » فى فرنسا . وليس هناك فى مدينة « كييف » أو « رستوف » أدنى دليل للتليفون . أما العامل فى مصانع المدانة « باوكرين » فانه لا يسمح له أن يرحل الى ضفاف « انفولكا » اذ أن ركام الاوراق العتيقة يقضم ثلاثة أرباع من أوقات فراغكم . وليس فى امكانكم ان تشاهدوا آخر شريط سينمائى أنتجه « فلينى » أو « برغمان » على افتراض أنكم تعرفون هذين الرجلين ، الشىء الذى يبدو ــ قبلا ــ كخبر يكاد يكون تحريضيا . ثم انكم لم تسمعوا قط بفاكهة الشهوة ذات الحمازة المعطرة ، ولا يملك محلقا كهربائيا الا واحد من أبناء العم الذى يعمل فى الادارة .. وعلاوة على ذلك فانكم تتنقلون فى متاجر الدولة من صندوق الى آخر لانه يتحتم عليكم أن تؤدوا على انفراد ثمن القميص والازرار ، فلا تجدون مكانا

شاغرا فى قاعات العروض المسرحية ، وبالتالى فانكم تجلسون فى بيوتكم أمام التلفاز الذى يصدع أرواحكم ، الى أن تمتلىء اشراقا ، بذكر الاعمال الباهرة التى قامت بها اللجنة المركزية للحزب ، والمآثر الخالدة التى سجلها الجيش الاحمر ، والحماس البطولى الذى يظهره العامل فى المناجم ، اذ لا حاجة الى القول ان هذا الانسان كان سعيداً لانه استخرج للوطن الشيــوعــى ثلاثمائة كيلوغرام من الفحم أكثر من أى عامل آخر .

* * *

وبعد ذلك ، فانتم تلتزمون الصمت لانه رغم المعناق ، فهل تعرفون ان كان أصدقاؤكم سيفهمون تنهداتكم أم أنهم سيفضحونها كحالات لضعف الارادة تنتقد فسحة النظام الاشتراكى ؟ تمملون — ولازلتم — فى حين أن الايام المستقبلية التى يلزمها ان تغنى تكاد لا تملك الا القليل من النفس الذى يجعلها تهمس بـــأن المستقبل سيكون أفضل : فــآه ما أبح هذه الاغنية ! ترى ماذا تتحملون ؟ أن الروح الروسية الحقيقية تقوم على عدم ادراك الحماس فى أى شىء كان ، بينما ترى سذاجتها أن كل شىء يستحق الاشراف . اذا صرتم مخلوقات هادئة ومتنورة ، بل مخلوقات مطاردة ، كل طفرة تنتهى عندكم بأبشع الاستقالات (نحن نعرف هذه النوبات منذ عهد غوغول) ، وكل غاية تجلد بضربات السوط (نحن نعرف هذه التبجحات منذ زمن «دستوفسكى» . وبما أن تولستوى — الذى أدرك ذروة المجد فى ســن الثمانين — أصبح يلاحقه شعور بالمطلق فقد تخلى عن زوجته ، وأبنائه ، وهويته ، وتوازنه ليغوص وسط الثلوج باحثا عن عقاب سماوى لست أدرى ما هو نوعه ؟

لاشيء يبدو بسيطا عندكم لان الضغط يرسو فى اعماق كل حنجرة وكل غشاء رئوى .وحيث أنكم تتارجحون يوميا بين الحماس والياس ، فان الصبر المقدس هو الذى يغدو مصدر ربح على مدى الايام نظرا لمشيته البطيئة ، وحركاته المتكررة ، وأوقاته اللامتغيرة ، ولعانته التى تشبه العبادة . هل تتالمون فعلا لشيء لم تناولوه : كتلك الحرية فى شكلها الغربى ؟ ربما ستجدونها غير محتملة وغير لائقة ، بل واشد وطاة من رتابة الحياة التى يجعلونكم تتمسكون بها ... كل واحد لنفسه ! هذه هى الفوضى الجميلة التى نرفعها شعارا عندنا ، الا انكم لا تدرون كيف تضعون فى نطاقها تلك الفضيلة الغربية التى يتحلى بها كل واحد منكم : اى تلك الصوفية المتسترة التى لا تحتاج الى شكل قار لتبرر انفعالاتكم ، فانا أطلق تسمية « أمل تجريدى » على هذا الطبع الصميمى لكينونتكم ، لانه يحملكم على اللجوء الى الصمت ، وعدم المطالبة بما هو اساسى ، وترك نافذة صغيرة مفتوحة على الغاية اللاممكنة . اما نحن فاننا نعبر بالكلمات عن وجوه سخطنا ، بحيث ان هذرنا يولد فينا ضرورة التمرد بمجرد ما يبرز امامنا شكل من اشكال الظلم . واما انتم فانكم أقل كلاما ، وبتعبير واضح ، فانكم اذا تكلمتم فانه لا يحدث ذلك سوى بطريقة لا منتظرة ، شاذة ومتقطعة . وعليه فانتم تعيشون مع تناقضاتكم دون أن تشعروا بضرورة صياغتها فى جمل انيقة قد تلازم حياتكم .

* * *

ان المسافرين يدعون بان الملل ينخر اجسادكم . ومن تم فانهم يمنحونكم ردود فعل نابعة منهم ، لانهم لا يعرفون أن العصور تمر عليكم دون أن تلحق بكم ادنى ضرر . ورغم بعض الانتفاضات فانتم الشعب الاكثر تحملا على مدى التاريخ

الحديث كله . اجل ، أن الزمن بالنسبة اليكم هو سهل من سهول « سيبيريا » ، واللانهاية هي شعبتكم بوادى « اللوار » ذلك ان البعض يظن ان تشابهكم قد صيركم في الاخير كتلة عديمة الشكل . فهل انتم تسماء الى هذا الحد ؟ تحتج النخبة وتنزعج وتتمرد ، أما الشعب فانه يتمسك باستمراريته ولا يدرى ان كان على يقين أنه يصبو الى التحول باى وجه كان ومع ذلك فقد حقق العملية الجراحية الضرورية سنة 1917 ، كما قضى بصفة نهائية على النخبة ، والقيصر ، وطبقة النبلاء والضباط ، ومقلدى باريس ، وروما ، وفيينا ، واصحاب الذوق الرفيع . انكم تكونون صفا متراصا ، يلتف بعضكم بالبعض الاخر لانكم تتشابهون لا لكونكم تخشون خطرا خارجيا . فلا احد ينكر سكوتكم ، وتستركم ، وحنينكم الغامض ، اذ اننا اصبحنا ندرك مقدار التضحية في سبيل الحصول على هذه الروح الوراثية .

* * *

لا شيء يسير على مايرام في روسيا : لاشيء قد سار على الاطلاق ايام كاترين ، والالكساندريين ، والنيكولاويين ، وملاتكوف كما كان الامر في المانيا ، وانجلترا ، وحتى في فرنسا . فمهما ساد دين العمال في هذا البلد فانه لم يعرف في اى وقت مضى دينا للعمل باستثناء العشرينات الاولى من هذا القرن . ذلك أن التخاذل يبدو هنالك امرا طبيعيا ، كما تشع القدرية موقفا كله شذوذ وخرافة منبوذة . اما الطقس فانه يضايق الجسد لانه يقطر ثلجا ، وشمسا ، ووحلا طيلة تسعة اشهر ولمدة خمس عشرة ساعة في اليوم . وبعبارة اخرى فان « الجغرافية » في بلادكم تنتصب كعدو للانسان ، تقاومونها ، وتحاولون قهرها ثم تشرفون على استعبادها ، واخيرا فانها تحبط عزيمتكم كما لو

حدث لكم نزيف فى الدماغ . فهل من اليسير ان تظلوا دائما تحت الضغط ؟ أنكم تنتقلون — دون تمهيد — من الاندفاع المفرط الى التخريب الباطنى . ولشدة ما تستعملون كل حميتكم لذلك فانكم تضيعونها فى يوم من الايام ، حينذاك تستيقظ فى أعماقكم الغريزة القروية الهرمة . ثم تتساءلون : لمن نعمل ؟ من اجل الدولة . هذا شىء رائع . ولكن مفهوم الدولة واسع حين أنها تملك الف رأس دون أن يكون لها وجه واحد . وعليه فانها تنتصب كعدو مادام انه من الصعب ابراز هويتها . وحسب رأيكم فان الفلاح الذى سلبت أرضه يتساءل قائلا : « اذا ما عملت بكل قواى فمن الذى سيستفيد ؟ » الامة بطبيعة الحال. لكن الامة لها أيضا مفهوم نظرى . ثم ماذا ستجنى انت — بصفتك ايفان أو ميخائيل ، او كوليا ، او نكيتا — من حروق يدك وتقلص أصابعك ؟ فقطعة أرضك لا تكفى سوى مؤونة فارين او ثلاثة غربان .

ربما يخطر على بالكم تحقيق مشاريع كبيرة كالحصول على دراجة نارية على أساس أنها تعد أسمى طموح فى حياتكم، ثم تدخرون لذلك العديد من الربلات لان ثمن تلك الالة الملعونة يساوى أجرة خمسة عشر شهراً . وبعد ذلك تحرمون انفسكم من « الكيدورين » ، واللحم ، والتغذية ، والتدفئة ، وحينما تجمعون نصف الثمن تهرعون الى تسجيل انفسكم فى اللائحة الرسمية للعمال الذين يستحقون — مبدئيا — الحصول على دراجة لا يبدو امتلاكها ترفا بقدر ما يبدو وسيلة تخول لكم التوجه الى المصنع او « الكلفور » فى أقرب وقت . على انهم يخبرونكم — خلال مرتين — انه سيقع تاخير فيما يتعلق بتسليم الدراجة . وهكذا فانكم تضيعون سنة كاملة . واخيرا تحصلون عليها ، ثم تغمركم الفرحة طيلة صيف كامل . وذات يوم تجدون أنفسكم فى طريق محفر ، ثم تفقد الالة قطعة اساسية ، فلا تجدون قطعة

غيار أخرى الا على مسافة بعيدة من المكان الذى تقيمون فيه . وحتى عندما توجد ، بعد مرور فصلين أو أكثر ، فانكم ستدرجون ضمن اللائحة الطويلة التى تحتوى على أسماء المنتظرين الاولين. فهذا هو الوعد البيروقراطى أيها الرفيق !

ان اللاكفاءة تسود كل مكان ، والتقشف يكاد يكون أقل خطرا مما كان عليه سابقا . وقبلا ، قيل بأن جيوش «كروباتكين» طلبت من المتمدية العسكرية لموسكو ابـــان الحرب الروسيـــة اليابانية أن تمدها ببعض الآلاف من الاحذية السوقاء الانيقة ، وذلك لكى تحقق انسحابها فى نظام على الاقل . فكم كانت خيبتها عندما تسلمت فى الاخير أحذية جديدة لا تناسب غيـــر الرجـــل اليسرى ! وقد كانوا يشيعون خلال الاربعينات بان احد وكلاء الشعب كان قد ألقى خطابا مليئا بالوعود المشرفة امام افراد جمهورية قروية اشتهرت بعدم ثقتها من سكان العاصمة . لقد صرح هذا الخطيب قائلا : « أيها الرفقاء ! بعد مدة قصيـــرة سيكون بامكان كل واحد منكم أن يحصل على طيارة شخصية حوامة » . فصاح فى وجهه فلاح خشن : « وماذا تريد منى أن أفعل بها ؟ » فأجابه الوكيل : « يالك من بليد ! اذا لم يكن يوجد عود ثقاب فى الناحية ، فلك أن تستقلها وتذهب الى العاصمة لشـــرائـــه » .

لقد كان يقول لى أحد الكتاب من الاصدقاء الذين يسكنون « لينيغراد » وهو يشرب كاسا من نبيذ الفودكا : « هل تعلـــم يا « الان » من الذى استفاد منا بعد مرور أكثر من نصف قرن على تبنى الاشتراكية ؟ » طبعا لا واحد غير نبيذ الفودكا لانه يجعلنا نسكر حتى الثمالة عندما لا تسير الامور بخير . وحتى حينما نعتقد أنها لن تسير على الاطلاق فانها تتحسن قليـــلا لمـــدة قصيـــرة .

يالها من ترهات ، وسفاسف ، ومماكسات تلك الشائمات التى تكتنف هذا الكوكب السادس من الارض الذى جبل على ان يخوض مسيرته الى الامام بكل ما يتحمله من مشقة ، وما يطبعه من خشونة وهوس ! ان الكسل لا يمكـن تقويمه الا بنوبات من الرعب تسقط كل واحدة على الاخرى ، فهل سيحقق الانتصار فى آخر المطاف ؟ لكن ، ماذا سيكون الانتصار يا ترى ان لم يكن شيئا آخر غير التقدم الذى لا يقود الى التدهـور السريع ؟ لقد استيقظت ((اسبانيا)) قبل سنوات ، وكبرت ، وتجاوزت نفسها ، ثم تحققت فى نطاق الزيف ، وبعد ذلك انهارت قواها وأوشكت أن تنقاد الى الضياع . لقد حدث ذلك فى أقل من ثلاثة أجيال دون أن تترك أى أثر فى أوروبا . فهل تعـرف يا ألكسندر ايزايفتش أى شىء يمثله بالنسبة لكل انسـان متحضر هذا النظام السوفياتى الذى يلزمنا أن نكرهه لمجرد أننا نقاسى العزلة مثلك ، كما يلزمنا أن نقدسه لاننا نشكـل مجموعة متمزقة لا مبرر لها سوى فردانيتها . ساجيب مكانك لان التعميمات تضيع فىعصرنا نحن التقنوقراطيين. ان الاشتراكية ـ من الهيام الى العطاء ـ هى التلاحم العجيـب والمستحيل الذى يحدث بين أمل لا يجرؤ بكل بساطة أن يسمى نفسه املا، وبين ايمان لا يقوى على أن يسمى نفسـه كذلك .

ذلك أن تهزأ لانه أمل مقيد ذو عينين تحترقان تحت ضوء المصباح بعد تحمل ثلاث وستين ساعة من الاستنطاق والتعذيب. وهو كذلك أمل الاعتقال فى الصباح الباكر بعد أن يصير كـل برىء مشبوها فيه وكل مشبوه فيه متهما .. انه أمل الخضوع والاستسلام ، يشبه عصفورا سقط على الرصيف بعد أن اصابه شرطى فى جناحه بطلقة نارية . انه أمل مرير له طعم عقـب السيجارة الاخيرة كصخرة من صخور الزنزانة يحاول بكـل قواه الهلمدة ان يمحو الدم الذى علق به . بالامكان أن يكون كل

هذه الانواع من الامل ، ولكنك تعرف جيدا — انت الذى كنت فى سبيريا الشاسعة واللامحدودة — ان الامل لا يموت • ومهما كنت هزيلا ، أو كسيحا ، أو متورم الجلدة فانى اقسم لك بان هذا الامل تختزنه صدور مائتين وستين مليونا من الروسيين • فلو كان هذا العدد مجرد شرارات خامدة فانه يكفى لاشعال حريق مهول • انكم تتنفسون جميعا الى درجة انه يكاد يعوض كل واحد منكم الاخر : فهذا يكفى وحده لابراز قوتكم كما يكفى ذلك الامل — الذى لا اسم له — والذى لا داعـــى لتحديده • فلتصدقنى ، أن رخاء العيش فى الغرب ، وسهولته ، ومـــا ينطوى عليه من خيرات ملموسة لا يساوى شيئا بالنسبة لذلك الامل • ربما انتم ترتعدون قليلا لكى تتحول حياتكم ذات يوم الى شىء هو من حقكم أن تكونوا عليه • اما نحن فاننا نرتعـــش مخافة أن نفقد كل ما نملكه : أى تلك الآلاف من الاشياء التى تنتهى بتعويضنا بعد أن تكون قد عانينا الكثير من أزمات الوعى التى تذوب فى مناقشاتنا البيزنطية وفى مواقفنا الصلفة •

* * *

كم يبدو الايمان — بدون الاعتقاد فى الخالق — مضرا فى المظهر ! ومع ذلك فانه يبعث الحياة فى نفوس سكان بلدكم كما لو كان يوجد قضاء مقدر يتجاوز وعود الحزب ومبادرات كـــل الافراد ، ويشع كسعادة تغمر هذه الارض دون ان تشبهها ••• اننا نعقل الامل ، ونستطيع بجهد قليل ان ننظمه • لذلك فاننا نحلله ونناقشه ، ونختاره ونتناقله • أما الايمان فانه لايحتاج الى ملبس أو حساب لانه يوجد دون أن نرغب فى ولادته ، ودون أن نستطيع القيام بشىء سواء من أجله أو ضده •

لا احد يمكنه الارتباط باللامحسوس ، فى حين يتمسك به الواحد عندكم اما عن طريق النظر او اللمس • وحينما ينهار

الامل تحت وطأة الحقائق الحزينة للشيوعية ، فان الايمـــان يعوضه : وهذا يعنى أنكم ازاء عنصرين تجريديين ينوب بعضهما عن الاخر دون الخضوع لاى قانون . وسواء كان هذا الايمان محظوراً أو متستراً ، فاننا لا نستطيع القيام بشىء أمام العدوى التى يتمثلها . فهذا التصوف الذى لا يحتاج الا لمعبود أو كاهن، وهذه الصلاة التى ترفض التعبير عن نفسها والتى لاتدرى اين تتوجه دعواتها العميقة ، كل ذلك يتجلى كنقيض لعقلانيتنـــا . اننا لا نفهم ذلك جيداً ، وحتى ماركس وانجلز فانهما لا يستطيعان تقبل هذا الامل الذى يتحدد ــ فى الوقت نفسه ــ هنا وهناك ، فى الواقع ونقيضه . ومهما حاولنا طمسه فانه يشع فى الاخير كسند أكيد : اذ أن الواقع يصبح ــ بفضل هذا الشكل مـــن اللاواقع ــ مقبولا وذلك عبر ارادة للتحول .

* * *

اننى لم ألمس هذا الامل فى أى واحد من مؤلفاتك الحديثة، كما أننى لم أجد ولو أثراً صغيراً يجعلنى أتأكد من أنك تقاسم مواطنيك هذا الايمان الجماعى .. فأنت تفضل أن تظل وحدك وأن يكون لك تصور بعيد عن شعبك الذى تدعى الدفاع عنه ضد جلاديه . لقد قبلت أن تصبح مؤسسة الى درجة أنك تجردت من نفسك لتتقمص هيأة القاضى المتعجرف والقاسى . واذا كانوا ((هم)) يتحملون مسؤولية عزلك عن شعبك ، فانك مسؤول عن هذا الوضع الذى قبلته . جميل أن يكون الانســـان الى جانب المنبوذين ! أما أن نتناسى ــ فى نطاق هذا الحمـــاس ــ جانب الجماهير التى ليست مدينة ولا مدانة ، فهذا شكل من العمى الخاص الذى لا تستطيع الشجاعة تعويضه ولا المغامرة الفردية . وهكذا فان الصراع الذى تخوضه ضد السلطـــات يؤدى فى نهاية الامر الى جرح اولئك الذين ينكبون على قضاياهم

اليومية . فانا لا أدعى أنه كان من اللازم عليك أن تلتزم الصمت أو ان تكون جبانا ، بل انى أدعى شيئا أقل من ذلك وهو انــه كان عليك أن تتقبل دون أدنى اعتراض كل المبالغات الصادرة عن النظـــام .

لقد انفصلت عن شعبك ، وعليه فليس من باب المرونة أن أملى عليك سلوكا آخر ، وانى لاصرح أنه لو كنت مكانك ، فلربما داهمنى الخور والاندهاش .

على أى ، فان خصومتى معك تدخل فى نطاق آخر . فنشدة أتشاعك بحقوقك ، وتأكدك من اتساع جمهورك — الى درجة تخليه عن الوقار — صرت آلة لصنع البلاغات ، والتحديات ، والتوبيخات ، والتهانى ، والعتابات كما لو كنت ((اسكندر)) العدالة الدولية ، و ((قيصر)) قانون . الفرد . اننا عندمـــا نسلم الحكم الى كاتب ما ، فانه يستغله بكامل الافراط . لقد كنت تمتلك هذا الحكم ولكنك اسرفت فيه . وبقدر مـــا كـــانوا يعذبونك بقدر ما كنت تطالب به . وعليه فان البساطة والتواضع ليســـا من شيمك . لقد كانوا فى الغرب على الخصوص — وفى أمريكا بالذات حيث تسود مظاهر التبسيط بأى وجه كان — يصفقون لمواقفك ، ويجعلونك تقاوم ، ويصنعون منك حصنـــا لمناهضة الوحشيـــة .

لقد قبلت هذا الدور المتملق والمشوه بكامل الغبطة ، مما جعله يحكى الشىء الكثير عن ذكائك وتوازنك النفسى .. فمن الاكيد أن لديك ظروفا مخففة : لان التعذيبات الكثيرة قد تركت فى جسدك وعقلك ندوبا لا تمحى . وبما أنك كنت تطالب بعقابك بكل وضوح ، فانى اعتقد أن قصة ((دستويفسكى)) — بعد أن حكم عليه بالاعدام ، وتقدم الى المقصلة عارى الصدر ، رغم برد

سبيريا الشديد ، ثم تسلم عفوه الفورى ــ كانت لا تجملك تنام على الاطلاق . أفلم يكن بامكانك ــ انت كذلك ــ أن تعاكس خصوما اشد ضراوة من موظفى القيصر .

« يــتــبــع »

نص ـ قصيدة :

العيون التى لا تريد ان تموت

أحمد لمسيح

الزمن طفل يتيم يعشق الغضب
يخرج من كفن السؤال
يرقص عاريا ويدلى لسانه
ثم يغيب ...
والأموات يتظاهرون فى زمن كفنه رايات / قبوره محطات /
يرفعون نطفهم فى أياديهم / يغزون البحار ـ تصبح صحارى /
يستندون المرايا / تغطيهم الرمال .
يحلمون .. ثم يغيب الزمن ...
يقف النغط غرابا يدرب العسس
واليوم حوله عسكر يتعلم كتابة الشعر / والحفر فى صدر الطفل المشاغب ،
وكانت الريح بينهما عربية .. تقول :
الطفل المشاغب غاب ..
الطفل المشاغب غاب ..
تصبح السفن ناقات تطرب للغناء / تعشق الرعى فى « كتامة »/

تصبح سفنا يحمل علياه النفط/غربانا وبوما/ يسالون الحروف/ يسألون الاسرة / يسألون العشيرة – باسم الدولار – عن نطفــل المشاغب / ٠٠ لكن ٠٠
الزمن طفل يتيم يعشــق الشغــب
يخــرج مــن كفــن الســؤال
يــرقــص عــاريــا ويدلى لســانــه
ثــم يغيــب ٠٠٠
أيــن غــــاب ؟

وحده يعرف مناجم السؤال / يلبس حذاءه ويركب الشمس / يصمت قليلا / يكتب رسالة حب ٠٠ / تغطيه أتربة الحديد / يحملونه ورقة ممزقة انفها الصدا / يصهر مسمارا من اجــل نعش / ٠٠ لكن ٠٠ / كان المسمار سيفا / يغنون له – يرعونه فى كثامة / يحملونه آلى البحر سفينة – يفجرون السفينة / يصنعون تمثالا من رمادها / يبعثونه بين البوم والغربــان / يدخل بيتا أبيض/يزرعون قنبه فى دماغه – يبعثونه للتجسس ٠٠
لكنه طفل يتيــم يعشــق الشغــب
يرقص عــاريــا ويدلــى لســانه
ثــم يغيــب ٠٠٠

. . . .

. . . .

الغابة عروسة متوحشة تكره الغزل / تعشق الخــروج ٠٠ تعشق السهر ٠٠/ يدخلها الطفل المشاغب نطفة تزهر بــين أضراسها وردة / وكانت الوردة تعلن عن نفسها شوكة فــى حلق العروس المتوحشة (وكان يوم زفافها) ٠٠٠ / وكان الدم يسيل ومن عينيها راحت الفراشات تسابق الفيضان / والريح فرس جموح يتمرغ فى السيل وينهض ٠٠ / ٠٠

ياتى الطفل المشـــاغب شيخا أعمى / يمشى على الاشواك / يركض وراءه سنابل تغنى معرية صدرها للريح/أغرت المناجل/ وكان الحصاد أطفالا / يبكون ــ يبكى الطفل المشاغب

يرقص عـــاريـــا ويدلـــى لســـانـــه

ثـــم يغيـــب . . .

. . .

. . .

ياتى شمسا تلبس جلد امراة / تمشى وراءها غابة مشتعلة / تقف / تتوسد الامواج / تحلم انها سفينة مهجورة وسط البحر/ وتفيق / تضع على عينيها سحابة / وتنام / تخاف استرخـــاء الامواج / تاتى الغربان / تخاف عطشهم / يشرعون ــ يفرغون البحر / تشق قميصها / تبلع الماء / تغرق . . (وكان الغارق هو البحر).. / تتحسس الرمال / تبدأ الكلام / تخرج الامواج حمامات تنقر ظفيرتها / تنهض .. وراءها غابة مشتعلة/ تتامل جسدها / تطل من داخلها على جواد براس امـــراة يســـابق الشمس / يتعب فيختفى تحت جناحها ويرقد / ياتيه القمـــر المتسول مشروخ الوجه ملتهب اللحية / يقاسمه الزاد / يسكران معا ويطيران / وكانت تتكاسل الشمس فياتيان .. / يدخل المناطق المحرمة / يظل القمر يراقب مطارديه / يكتشفونه .../ حوله الجبال تنظر الى ما تحت السرة ..

لكنـــه .. طفل يتيم يعشـــق الشغـــب

يخـــرج مـــن كفـــن الســـؤال

يرقـــص عـــاريـــا ويدلـــى لســـانـــه

ثـــم يغيـــب . .

. . . .

. . . .

يأتى قصيدة بلون الحرائق وعطر السحـــرة / كـــل الدراويش ينشدونها / وما أنشدوا غير مراثيهم / يتذكرون وعد الهجرة فيركضون / يتحولون ريحا تعصف وراء قصيدة يسكنها الفجر / وكانت القصيدة بازا تحتضن صغارها / وفى غفلة الامومة كانت أسيرة (خيول الخليفة سبقت الدراويش) ومـــا زالـــت تحكى لصغارها رواية الأم / وتعتمهم فن الحرب / وكان الصلب
وكان الحرق
وكان الرماد

. . . .
. . . .

والعيون وحدها الآن تسير بيننا / تعلمنـــا / سكناها . . . اليوم تسكننا / . . والشمس تغرق نصفها فى البحر / وتضع على شعرتنا غيمة ثم تبكى خفية . .

. . . .
. . . .

فى الغـــد كنـــا طفـــلا يتيمـــا يعشـــق الشغـــب
نرقص عراة وندلى ألسنتنـــا
نـــركض ــ نغيـــب ــ نـــركض
وكنـــا نعشـــق الشغـــب . . .

احمـــد لمسيـــح

الربـــاط فـــى ينايـــر 1977

الطاهر بنجلون

الشجـرة

(قصـــة)

تصوروا غابة صغيرة ، بالضبط عند بـــاب المدينة . هــادئة ، خضراء وليست جد كثيفة . ومن بعد تصوروا شجرة فى عمرها مائة عام ، عرفت كل أنواع تقلبات الجو . ضموا هذه الشجرة وسط هذه الغابة واصيغوا السمع فى الصباح لريح الشمـال :

كانت هناك شجرة تتغذى من اللحم الادمى . تبتلع الاطفال ويغيب الصغار فيهـــا دون أن يتركوا اثرا . اخذت العـــائلات والسلطات تبدى قلقها على نحو جدى والاشاعات التى تجرى بين الناس تقول ان غولا يخطف الاطفال قصد بيعهم الى احدى حفظ اللحوم مجهولة الاسم . ويقال ايضا ان هذه الشركة ذات التقنية الحديثة تبنت هدفا يقضى بمساعدة الانسانية المتالمة ذلك انها تعاقدت مع المستشفيات الامريكية بهدف تموينها بالقلـــوب والكلي الطرية المخصصة للزراعة . وفى الواقع يبحث عن هذا الغــول طويـــلا .

وتتكلم عنه العائلات بنوع من الاجلال الى حد أن جعلوا منه اسطورة ، بطل اسطورة عمل البعض على كبتهـــا فى الاعـــوام المظلمـــة .

ولما كان ظهوره متزامنا مع الحرب والايام الصعبة فان هذا مكنه لان يتسرب الى مخاوفنا الاولى . فالبعض يقول على أنه أحد أعيان مدينة « فاس » ، رجل لا يرقى اليه الشـــك ، غني نظر التعاون مع المسيحيين .

الزم بتصفية الوطنيين . يخنق ضحاياه فى الحمامات ويرمى بهم من ثمة الى المرجل . لم تتوقف الاشاعات عند هذا الحد . فالاعتداءات وغياب الرجال يتكرر ، ولم يستطع أحد ان يكتشف النقاب عنها . (فى الواقع يمكن أن هذا الغول ــ الوجيه قــد وجد. لم تعرف الحقيقة أبدا ، فالشجرة او الغابة ستتولى فى يوم ما) . أما بالنسبة للشجرة التى هى بعيدة عن كل سوء ظنـــه فكانت تنشر عطرها الذى لايقاوم سحره فيسبب دوارا فـــى رؤوس وقلوب الاطفال فينتادون لها بحنان مسحورين مفتونين . كل المرايا تنفتح عند مرورهم . تتراجع شاشات السماء وتتلون الشمس على أيقاع خطواتهم . تلف الريح اجســـادهم برقـــة وتقدمهم هدية الى الشجرة . تبتلعهم دون أن يبدوا أدنى تردد . ومقابل هذا تسمح لهم أن ينقشوا ضحكتهم على قشرتها .

ومن حين لآخر تخرج الشجرة جذورها . يغتنم الاطفـــال الفرصة فيخرجون ويتجولون فى الغابة عراة سعداء ، ينساب الفجر بين أصابعهم ويفتح لهم باب السماء ... تبقى الشجرة تسعد العراة والمعذبين . تسعد الاطفال الذين بصقـــوا بدون حياء على الرمز والصورة ، تسعد الاطفال الذيـــن رفضتهـــم الرحمة ، الاطفال الذين أزاحوا عن القبور قرميدهـــا واخرجوا منها الجماجم ، صفروا على القديسين وقراوا الفاتحة مقلوبة الاطفال الذين يحملون السب على أطراف أظافرهم ، ويبصقون فى الخبز قبل أن يصنعوا منه كريات تنفجر فى بطون الاعيان ، الاطفال الذين يبولون فى المنبع قصد نقض الوضوء ، ومارسوا الاستمناء جماعة وسط الجامع وواصلوا عقب ذلك الصوات.

ومنذ مدة يتكلم الناس عن الملامات الدالة على نهـــاية العالم . والله ينذر الناسدين بارسـاله ملائكة تدمر كل شيء. والتجديف طريق مفتوح لجهنم . « أكادير » على قمم أخرى . « أكادير » على اطراف كل الليالى . فى نار واحدة حرق الاخضر اليابس . واللعنة تشق طريقها من حلال براءة ما . الوضوء بالمنى ! لم نر ابدا شيئا كهذا !

لا يمكننا أن نمس « الكتاب » وأن نتلو الصلاة فميـــاه المدينة كلها ملوثة . والارواح مدنسة والاعيان يطلقون سراح آخر ما تبقى لديهم من عبيد . المساجد اقفلت وتحرسـها قوات النظام ، أحتل جندى مسلم مكان المؤذن . ليس هناك آذان للصلاة . ومن اراد أن يتوضأ يمكـــن له أن يستعمل الحجـــر المصقول ، لكن يلزم قبل كل شيء أن يطهر جسده من جرثومة الرجس ويتخلص من الحيوانات المنوية ذات الرؤوس الملتصقة بالابط . ولهذا الغرض يعرض الجسد للشمس ويغوص المتوضىء سبع مرات فى البحر ونظره نحو مكة . وبالنسبة لمن لايكفيهم البحر توزع عليهم منظفات منزلية مطهرة مرسلة خصيصا من « أمريكا » على سبيل المساعدة والتعاطف وتكميل مشـــروع مساعدة الدول السائرة فى طريق النمو . لكن المطهر كانت له آثار غير متوقعة (خطأ والتباس صادر من الناظمة الاليـــة « الاوردينــاتور » ...): يسبب صفرة للجلد وتفكك فى شبكـــة العين . ولا تمر أيام حتي تتحول هذه الصفرة الى عين ازرق . ويترتب عن هذا التحول سقوط الشعر وانتثار شعر البدن فتنحو على الجسد نبتة رقيقة . وخلال بعض الاسابيع يغمر النبـــات كل الجسد وتلتصق الاطراف به .

لم يعرف الاولياء ماذا يفعلون . فالعفن يخفق الاجســـاد ويلفنها فى كفن من ورقة الداليات . وفى الليل يجرى الدفـــن

السرى وترمى الاجساد الخضراء فى أرض بور . تختفى هذه الاجساد عند اقتراب ساعات الصباح الاولى . أنها أجساد خضراء — مراعي امتداد النظر ، أجساد حصدتها الاسطورة ورفضتها الارض . أما الشجرة فتستولى عليها وترميها فى فندق مجاور قصد مشروعات غير مشكوك فيها . يمكن أن تستعمل لغذاء جديد !

وعندما يقترب نزول المطر تدخل الشجرة اغصانها وتجمع اوراقها وتتوقف عن كل حركة . فهي لا تحب فصل الشتاء . وتكره الريح ، تنغلق على جذورها متلومة .

ليس هناك لأن عطر ولهذا لا يذهب الاطفال أبدا الى الغابة .

وخلال عدة شهور يتكلم الناس عن الغول ناسين الشجرة . . .

. . . ليس هناك غول ! لم يكن هناك أبدا غول ! انه حكاية تروى للاطفال . ومع ذلك يمكن ان يوجد الغول اذا ما أردنا ان نختلقه . وسنقرر باتفاق جماعي على أن وجيها كالذى ذكره ، رجلا فاضلا رحيما سيتحمل مسؤولية وظيفة الاختلاق نظرا لمناعته الاجتماعية . وبعد كل هذا فالرحمة تقترن غالبا بانحسار عنه ما . والغول يمكن أن يكون عابر سبيل أو رجلا على صهوة حصان ، تمثالا فى واجهة لعرض الازياء والملابس محشوا بالتبن ، غماسة اشاعة . . .

ولننتقل .

لكن الشجرة توجد . لن يكون هناك داع لاختلاقها ، نجرحنا الاحمر (او الاخضر الامر يتعلق بالفصول) يشهد بذلك.

وقد يكون من الايسر قلب الحكاية والاحتفاظ بالحل الى نهاية الصفحة ، لكن اللغز سيحتم علينا أن نلعب ونقرأ ونفسر الاشياء ولهذا نقول ليس هناك رمز .

لماذا نضع للجنون قانونا آخر غير قانون الواقع المعاش ؟ فالشجرة هى محاكمة للحلم . فمن يجرؤ أن يتهم الشجرة بأنها تخرب وتدمــــر ؟

تبقى شعرا ينفتح على امكانيات خيالية لكنها بعيدة عن البراءة .

كان الشتاء هو الزمن الذى يستبدل فيه الاطفال المبتلعين جلدهم بريش طائر فضى . واختارت السلطة هذا الفصل الذى يعرف بالهدوء . تقتلع العنصر الذى يثير الاضراب فى الغابة ، فأرسلت احد أعوانها مسلحا ليحز الشجرة ويخرج الاجساد من الارض .

فضل المأمور ان ينجز ما أمر به وحده فى الصباح الباكر . كانت الغابة واضحة ، واشعاعات الشمس الاولى تحرك كثافة الاوراق الميتة . اقترب بتكاسل من الشجرة وأخـــذ يداعبهـــا . احس بشعور غريب . انتصب عضوه التناسلى بكامله — شد الشجرة الى صدره وارسل حشرجات اللذة بعد أن استطـــاع ان يطوقها بيده . تدلى لسانه كاملا خارج فمه واخذ يلعـــق النسغ .

كانت الشجرة الصورة الساخرة للسماء وللحلم . وبصراخ دام قذف المأمور . يقذف المنى الاخضر ودم المستنقعات الازرق الذى يغذى شرايينه ، يقذف بارجاجات كـــل اوحـــال جمجمته سقوط بدون نهاية . الجسم الآن فارغ . والشمس التى صدمت من جراء الانتعاظ السهل منحته عندها . خرجت عيون المأمور

من محاجرها وتدحرجت بحركة بطيئة على خدوده . واختلط سائل شبكية العين بالعرق واخذ المنى يجرى بدون توقف . وبعد ان انهكه النزيف على الارض . طلبت منه الشجرة ان ينقاد للشق الذى ينفتح على طول جذعها ليبلعه ولما التقفه الانفتاح الموجود بجذع الشجرة وجد المأمور نفسه عاريا وسط حديقة مصبوغة بكل الالوان . وفى هذه الحديقة لم يكن يوجد الا الورد والطيور والحيات ، لا شيىء غير السمك والجبال والنجوم والاضواء واقداح العسل والشموس الكثيرة ، كان هناك ايضا الاطفال الذين اختفوا فى الغابة . وجوههم منثورة حركاتهم جذلى ، على آرتباط متواصل بالنجوم التى تنفجر غالبا من خلال انفاسهم . عيونهم هى تلك الشفافية التى تهيم على الرمال المتنقلة . ويبدو أن السماء قد أبعدت الى الابد الظلام فى حين ينساب الضوء بدون انقطاع على عرى واقع ناصع . السماء هى الشاهد الوحيد على هذا ، السماء التى لا تعرف الاشتراك فى جريمة او أن تحمل بداخلها ضغينة .

وتتوقف النجوم التى تمر لاسعاد الاطفال الذين يتلهون بركوب مسارها . يجرون نحو المأمور ويشكلون من حوله دائرة. يمدون اليه أياديهم المفتوحة ، اياديهم المملوءة بالحاضر . يهديه أحدهم برتقالا وآخرون حلى وآخرون حفنة من تراب او باقة من الربيع . يضحكون ويرددون نشيدا :

لو أن جميع أطفال العالم يأتون الى الغابة
لما عاد فى المحيطات ماء من شدة الفرح
عالمنا حب / مفتوح يحتفل بالاعراس مع السماء ...

اثر هذا استضيف المأمور لان يبلل جسده فى البئر الرئيسى. تعلق بالحبل واخذ الاطفال يديرون التكبرة . وماء هذا البئر يغسل الاجساد التى تبتلعها الشجرة ويطهرها من كل الادران

التى تراكمت عليها فى عالم الرجال . صعد المأمور من البئـر وانقاد الى البركة الكبرى حيث يلزمه أن يستبدل ذاكرته المثقلة بالندم والالام بذاكرة جديدة من النوع النباتي تحتوى على عـدد لا يستهان به من ذكريات المستقبل . يلزمه أن يحدق طويلا فى الصورة التى تعكسها له البركة الى حد أن لا تعود تعكس له صـورتـه .

ستقترح عليه وجها آخر وستدله الى طريق مشروع جديد . ولما نهض المأمور لم يكن هو الجلاد الذى امر بجز الشجرة ولكن رجلا سعيدا يجهل كل أنواع السلاح ذهب عقب نهوضه لان يأخذ نصيبه من الضوء اليومى ، غذاء الحديقة الوحيد . وبينما اخذت آلامه وجراحه تجـف تكلم قائـلا :

اسمحـوا لـى بـأن اقول لكم :
كنـت قطعـة من فـولاذ
نـايـا مغـروسـا بالندى
انسـانـا حقيـرا مغـرورا بعمـائه
تجـولت طويـلا بخنجـر فى الرقبـة
وحملـت بداخلـى حياة محبطة واعتقادا
بـوجـود مـوت هـادىء وارجوانـى ،
ويـامـا وضعت عينـى على عتبة كل منـزل

وجريت فى القلعة وانتشلت الاعترافات من بلاطات فراغ الاجساد ورأيت فى البدء الاشارة تخرج من القشرة ، لكنى لم احلم ابدا بموت عذب على هذا الشكل ، يزف بالرقـة والضوء الجميل ورقة فتحة لحمى الذى اعطيته اليكم لتجدوا فيه رماد آلامى ، لحمى الذى أعطيته اليكم لتجدوا فيه آلامى ، لحمى المنهك اللين الذى يسقط فى شكل قمم نسيان ، ومن ينهض جسدى الآخر يخفى عين الذكرى التى لا شكل لهـا ، يقسـم

بأطفال الصحو والضوء الذى يجرى فى شرايينا وينسغ السماء ، ويتمد فى العشب الذى يتقدم .

اسمحوا لى لان أقول لكم شيئا عن حياتى الذى يتحول وردة

يختلط الحكم بضباب لحاء الشجرة الناصع، استجمع الدمعة

كنت قطعة من فولاذ
نابيا مغروسا بالثدى
لحظة مغرورة بعمائها . . .

ارتقي المأمور رسميا الي شرفات الموت . تبنى المأمور اليتيم كل الاطفال . يستنشقه بعمق السعادة التى يوفرها الضوء . ذاكرته الاخرى الموضوعة بالارشيفات تحتج . تقاوم وتغضب . وفى مواجهة عدم الاهتمام الذى يبديه حاملها القديم ارتأت أن تقرر نفسها وتختار الانتحار البطيء .

وفى هذه الاثناء جندت السلطات كل رجالها للعثور على المأمور . الا أن الشىء الذى دفع بها لان توقف بحثها عنه هو البرقية التى توصلت بها فى احدى المساءات :

ستجدون جسدى داخل برتقالة توجد باحدى صناديق مكتب التسويق والتصدير الموجهة الى بلد وهمى .

التوقيع : المامور

ترجمة : الدامون نواندين

محمد ابراهيم بوعلو

الزائر

(اقصوصة)

دق الباب فقامت الى فتحه ، وسالها الشاب عن ابنها فى ادب واحترام ، واخبرته بانه سافر الى الدار البيضاء ولن يلبث أن يعود فى هذا المساء كعادته.. واظهر الشاب الحاحا قويا فى لقاء ابنها ، فما كان منها الا أن طلبت منه أن يدخل الى البيت فينتظره ، خاصة وأن المطر ينزل غزيرا ..

وعندما جلس الشاب فى الحجرة الوحيدة أخذ يحدثها عن ابنها بلوعة المشتاق ، فما كان منها الا أن سالته باستحياء : « ان بصرى ضعيف يا ولدى فاسمح لى اذا ما سألتك .. » فاجابها بكل احترام : « تفضلى يا سيدتى .. » فقالت له : « الا يكون اسمك (قاسم) صديق ابنى .. » واجابها ببشاشة : « هو كذلك .. اننى قاسم .. » واردفت السيدة : « لقد عرفتك .. وقلت فى نفسى ان هذا الذى يسأل عن ابنى بهذا الالحاح لن يكون الا (قاسم) » ثم قامت تعد الزائر شايا ساخنا يبعد عنه برودة الطقس ..

واغتنمها الشاب فرصة سانحة لان يجيل بصره فى كــل جزء من هذه الحجرة ، من غير ان ينسى أن يستعمل يديه أيضا ، وكأنه يبحث عن شيء مــا ..

عادت السيدة تحمل الشاى من المطبخ فعاد هو الى جلسته السابقة ، وهو يؤاخذها على تكليف نفسها باعداد الشاى ، ولكنه لم يمانع فى أخذ كأسه منها ، وهو فى أشد الحاجة اليه .. وانطلقت المرأة تحدثه عن نفسها وعن ابنها ، وعن آمالها التى تعقدها عليه ، خاصة ، وهى تنتظر منه أن يتوفر له مــال من عمله المتواضع لياخذها الى الخارج لاجراء عملية لعينيهــا المتعبتين .. من غير أن تنسى أن تسأل الشاب اذا ما كان فى نيته أن يتزوج باكرا لانه لا شيء يدخل السرور على الوالدين من رؤية ابنهما وقد بنى عشه ، وزقزقت فيه الاحفاد . .

غير أن الشاب كان وهو يشاركها آمالها كان يطلب منها الا تتسرع فأمامهما وقت طويل لذلك .. فى حين استخلصت هى نفس الفكرة التى لا ينى ابنها فى ترديدها ، وهى أن شباب اليوم برم من الزواج والمسئوليات العائلية ، فالحياة اصبحت بغلائها لا تطاق ، وأن عليهما أن يكافحا ، من أجل لقمة الخبز، كفاح الابطال .. ثم ما لبثت أن اخذت تلعن هذه الظروف التى تعوق المرء من مزاولة نشاطه بكل حرية ، والمتابعات التى تقام فى وجه المستقيمين من الشباب الذين يسعون لخدمة بلادهم بكل حماس وعزم . . .

وبدا أن الشاب ضاق ذرعا بأقوال السيدة الحزينة فما كان منه الا أن غادرها على أن يعود اليهما بعد قليل .. وودعته السيدة عند الباب بالدعاء له ولابنها بالخير والرشاد ..

ولكن الشاب لم يمهلها طويلا حتى تستريح فى فراشها بل

رجع اليها يسالها اذا ما كان ابنها قد عاد ، فطلبت منه ، مرة أخرى أن يدخل ، ولكنه اعتذر بادب ، وهو يستسمحها على هذا الازعـــاج . .

وتوالت دقاته على الباب واستفساره عن ابنها أكثر من عشر مرات الى أن تعبت من القيام والجلوس فسالته : « قل لى يا ولدى اى شىء تريده منه ؟ لاشك أن شيئا هاما تنتظره منه ؟ » ونفى الشاب أن يكون هناك شىء هام ، كل ما هنالك هو أنه فى اشتياق لرؤيته ، ثم انصرف ..

وعندما عاد من جديد وفتحت له الباب وسالها صاحت فى وجهه هذه المرة : « الا يمكنك أن تؤخر زيارتك الى صباح الغد ؟ لقد أتعبتنى كثيرا يا بنى وأنا كما ترى امرأة عجوز لا قدرة لى على مغادرة الفراش ، خاصة فى ليلة ممطرة كهذه .. » واعتذر الشاب من جديد على تصرفه هذا ، وسالها أن تصفح عنه .

وعندما عادت الى فراشها اكتنفها هم مفاجىء « أن فى الامر ما يريب .. الا يمكن أن يكون مكروه ما لحق بابنها .. ؟ ألا يمكن أن يكون هذا الشاب قد سمع عن حادثة سير قـــد تعرض لها ابنها وجاء ليتاكد من ذلك بنفسه .. » ولامت نفسها على تصرفها الاخير ، وودت من كل قلبها أن يعود الشاب من جديد تستدرجه فى السؤال لتعرف الحقيقة ..

وسمعت نقرا على الباب فقامت توا لفتحه ، وفيما هـــى تحاول أن تتكلم وصلها صوت ابنها يطمئنها ، ويستسمحها على هذا التاخير .. وضمته الى صدرها فى حنان تشبع نفسها من انفاسها .

وعندما جلسا قليلا أخبرته عن زيارة صديقه (قاسم) ولكنه بدل أن يبدى ابتهاجه لذلك سالها :

ـ وكيف عرفت أنه قاسم ؟

ـ لقد قلت له : ((هل أنت قاسم ؟)) فأكد لى ذلك ..

ـ لا .. لا .. انه ليس هو ..

ـ ولمـــاذا ؟

ـ لان قاسم سافر الى المانيا ، ولن يعود قبل سنتين ..

ـ أمتأكد مما تقول ؟

ـ نعم .. كل التأكيـــد

ـ ومن هذا الشاب الذى لم يترك أى فرصة للاستراحة.. لقد زارك هذا المساء أكثر من عشر مرات ، وأدخلته الى هنا وأسقيته شايا ..

ووقف ابنها فزعا .. فسألته داهشة :

ـ ماذا بـــك ؟

ـ وأدخلته الى بيتنا .. !!

ـ نعم .. لقد كنت أعتقد انه (قاسم)

ـ لا .. لا ..

ـ ومن يكون ؟

ـ لعله من المخابرات ..

ـ وما العمـــل ؟

ـ على أن أودعك الآن قبـــل أن يعود من جديد لالقـــاء القبض على ..

وقبلها بسرعة ، ورفع كيسه الذى كان يحمله معه قبل قليل ، وغادر البيت مسرعا ..

ولم تمض الا دقائق معدودات حتى عاد الشاب من جديد يسأل

عن ابنها ، وعندما أجابته ، هذه المرة ، بانه لن يعود فى هذه الليلة ، ولاحظ شفتيها المرتعشتين أخذ يستدرجها فى الحديث ، وهو يلاحظ خوفها منه ، واصطناع التادب المبالغ فيه ، فما كان منه الا ان غير اسلوبه وخاطبها بنبرة حادة مما جعلها تساله : ((اذن .. أنت لست بصديقه قاسم ؟)) ولكنه لم يجبها عن سؤالها بل كان يدخل بسرعة باحثا عن ابنها ، ثم يخرج وهو يدفعها امامه قائلا : ((لقد فر الملعين اذن .. سنعرف كيف نقبض عليه .. هيا تقدمى أيتها العجوز أمامى ..)) .